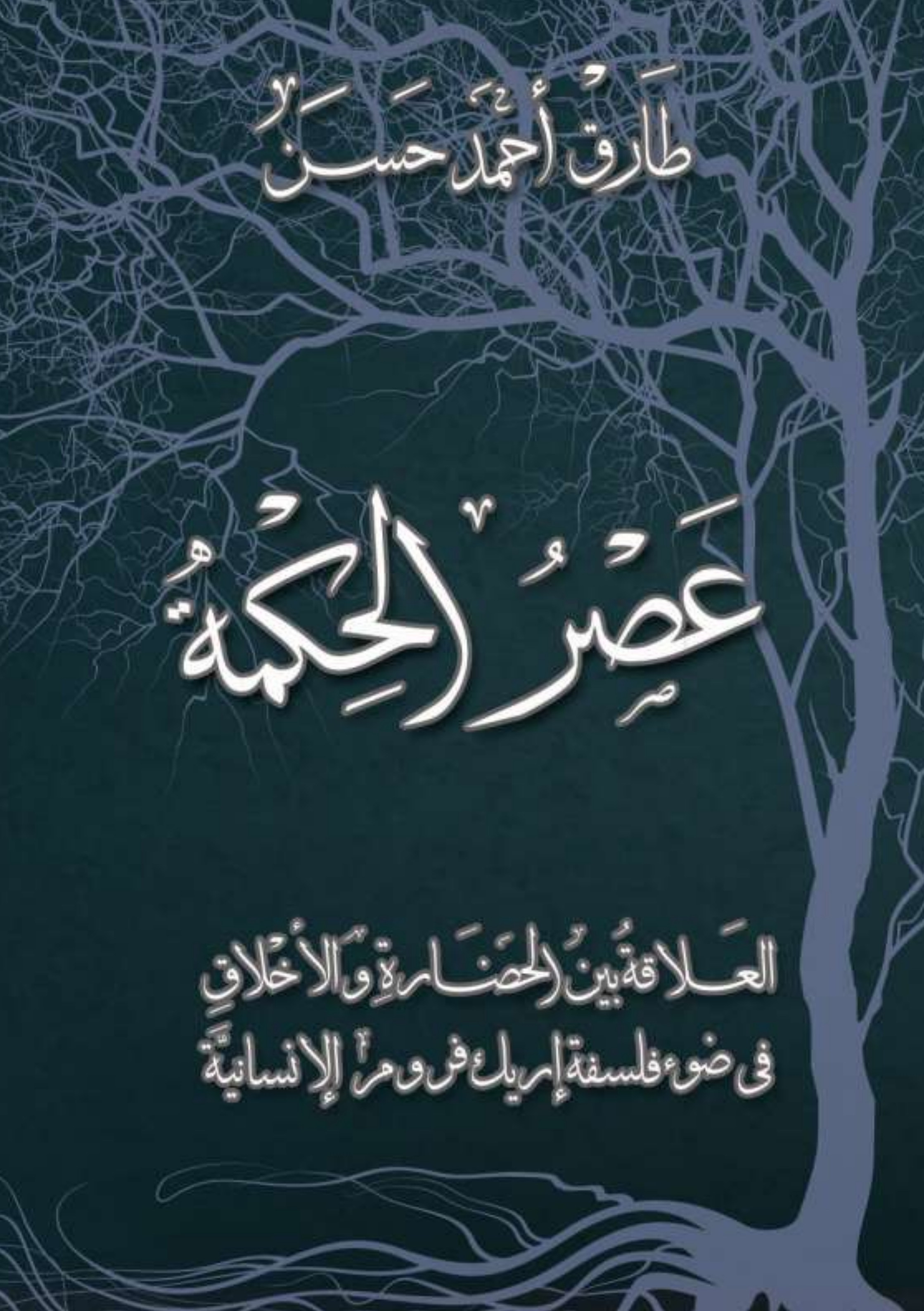

طَارِقُ أَحْمَدُ حَسَن
عَصْرُ الحِكْمَة
العَلاقة بين الحَضَارَةِ والأَخْلاقِ
في ضوء فلسفة إريك فروم الإنسانيَّة


عصر الحكمة

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

حسن، طارق أحمد
عصر الحكمة: العلاقة بين الحضارة والأخلاق في ضوء فلسفة إريك فروم الإنسانية / طارق أحمد حسن
.ــ ط1ــ الإسكندرية: طارق أحمد حسن 2013

188 ص ؛ 14×20سم

الترقيم الدولي: 3 1264 90 977 978

1ــ الحضارة ـ فلسفة
2ــ الأخلاق ـ فلسفة

أــ عصر الحكمة

901 , 901

رقم الإيداع 23923/ **التاريخ :** 23/12/ 2013

التنسيق والجمع الألكترونى والتدقيق اللغو ي محمدالسخاوى

طارق أحمد حسن



العلاقة بين الحضارة والأخلاق في ضوء فلسفة إريك فروم الإنسانية

" ليستْ المشكلةُ فى أن يكونَ الإنسانُ محبوباً ، ولكن فى أن يكونَ قادراً على أن يحب. لأن القدرة على الحب ـ لاعلى بديله المُزَيَّفْ ـ هى من أصعب الإنجازات. وهى وحدها التى تستطيع أن تُوَلِّد حُباً داخل شخصٍ آخر. "

إريك فروم

المحتويات

مقدمة

منذ حوالى خمسمائة عام انتقل الإنسانُ من عصر التسلط إلى عصر الرشد. بدأ ذلك فى أوروبا وصاحبه تغيّر كبير فى نظرة الإنسان لنفسه وللكون. وتغيرتْ كذلك الكثير من قيمه وأخلاقه وسلوكه وعاداته.

هذا التغيُّر وإن كان إيجابيّاً فى مجمله وأدى إلى تحطيم الأوثان، وتحرير العقل من الأوهام، والبعد عن الأفكار السحرية والأخلاق التسلطية وازدهار العلوم والفنون والثقافة، إلا أنه لم يخلُ من سلبيات. فالإنسان الذى نضج فى عصر الرشد لم ينضج بما يكفى. والأوثان التى تحطمّت حل محلها أوثانٌ أخرى. والأوهام التى تفرّقت بدأت تتجمع من جديد.

لهذا بدأ العالم يواجه خيارَ العودة إلى الوراء أو الانتقال إلى عصر الحكمة الذى سوفَ يعالج كل جوانب الخلل والقصور فى الحضارة الحالية. والإنسان فى عصر الحكمة سوف يفهم نفسه جيّداً، وسوف يؤدى ذلك إلى حدوث تغيُّر كبير فى مفهوم العلم ومفهوم الأخلاق، ومفهوم الصحة النفسية. وسوف تفقد الصراعات المأساوية جاذبيتها، وتتكشف

أسبابها اللامعقولة وتنسحب الدوافع التى تغذى العدوانية والقتل والتدمير، ويختفى مفهوم العدوّ التقليدى الذى يختلف معك فى الجنس أو الدين أو الثقافة أو المذهب أو الطائفة، ويتحد البشرْ جميعاً ضد كل من يستغل نقاط ضعفهم.

إنّ تقسيمَ الحضارة إلى ثلاثة عصور هى: عصر التسلط، وعصر الرشد، وعصر الحكمة، لا يحمل فى الواقع أىّ إجماع علمى، ولكنه مع ذلك بدأ يكتسب اهتماماً متزايداً؛ لشدة ارتباطه بطبيعة العلاقة بين الحضارة والأخلاق. وهى العلاقة التى تمر بفترة مراجعة فى السنوات الأخيرة، بسبب كثرة الاضطرابات وانهيار الثوابت، واختلال التوازن، وفقدان المصداقية، وانعدام الأمان.

وحيث أننى قد قضيت سنوات طويلة أبحث فى منابع الفكر المختلفة عن كل ما يتعلق بهذا الموضوع، فقد رأيت أن أقدم للقارىء خلاصة ما توصلت إليه من أفكار. علماً بأن كل الآراء المعروضة هنا تعبر عن قناعاتى الشخصية التى لا أنكر أن الكثير منها متأثر بفلسفة إريك فروم الإنسانية وآرائه النقدية. وإريك فروم هو عالم النفس

والفيلسوف الأوروبي الأمريكي الشهير وأحد أعلام علم النفس الإنسانى، ويعتبره البعض بحق أعظم مفكرى القرن العشرين. وقد خصصت فصلاً كاملاً فى الباب الثانى من هذا الكتاب لعرض آرائه القيمة التى جمعتها بدقة شديدة وصبر طويل من كتبه المختلفة، وأعدتُ تنظيم العلاقة فيما بينها بما يتناسب مع طبيعة القضية التى أناقشها.

إننى لإيمانى الشديد بأهمية الموضوع، وعلاقة ذلك بالواقع الذى نعيشه، أعددتُ هذه الدراسة الموجزة. والهدف الوحيد منها هو تنقية ذهن القارىء من ذلك الكم الهائل من الأفكار المضللة التى تحيط به من كل اتجاه.

البابُ الأول

مشكلةُ الحضارة

"الحضارةُ نظامٌ اجتماعيٌّ يرتبط بإنتاج ثقافى متدفق. إنها الحل المثالى الذى توصل إليه الإنسان لكى يظل حياً وسوياً فى نفس الوقت. وهي تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والفوضى."

يقول الفيلسوف إريك فروم :

"الإنسان عليه أن يحارب ـ لا ضد خطر الموت فحسب ـ ولكن أيضاً ضد خطر آخر خاص تماماً بالإنسان، وهو خطر أن يصبح مجنوناً. إن الإنسان قد يُجَن إذا لم يجد إطاراً يجعله يشعر أنه فى بيته داخل العالم بشكل ما. وهناك عدة طرق يمكن أن يجد منها الإنسان حلاً لمشكلة أن يظل حياً وسوياً لم يُصَب بالجنون فى نفس الوقت. " (1)

إن سلوك الإنسان الحضارى يقوم على أسباب بيولوجية وكيميائية وفيزيائية ونفسية واقتصادية واجتماعية وبيئية وغيرها. ولكن كل هذه الأمور تتجمع فى عاملين أساسيين يمثلان كل السلوك الحضارى الذى يوّرث من جيل إلى آخر، هذان العاملان هما: عامل ظاهرى يسمى العادات. وعامل باطنى يسمى الإخلاق.

"العادات هي أنماطٌ مكتسبة ومتعلمة ومتكررة من السلوك تمثل النشاط البشري من طقوس وتقاليد، تُستمد في أغلب الأحيان من المجتمع."

وتدخل العادات في كثير من مناحي الحياة مثل الأمور الشخصية، والعمل والفن والترفيه والعلاقات بين الناس. والتعلم يحدث بعد فترة من التعرض لمثير معين، ثم يتطور بطريقة تجعل النشاط يتكرر عدة مرات. حيث أن الخلايا العصبية في المخ تخلق مساراً ثابتاً صعبَ التغيير. وقد تأخذ العادة أياماً أو سنواتٍ حتى يتقنها الفرد اعتماداً على مستوى تعقيدها، وهى تتكون من ثلاثة عناصر مترابطة هى: المعرفة، والرغبة، والمهارة.

والعادات والتقاليد الاجتماعية هي أنماط سلوكية تخص جماعة ما، حيث تتعلمها شفهياً من الجماعة السابقة. ولا تكون العادات مكتوبة غالباً. وقد تصبح بعضُ العادات في مجتمع معيَّن جزءاً من القانون الرسمي، ولكن ليس ذلك ضرورياً؛ لأن العادات غالباً ذات تأثير أقوى من القانون، ولا تحتاج إلى قوة لفرضها. وتؤدي العادات وظيفة اجتماعية إذ

أنها تقوِّي الروابط بين أفراد المجتمع. ولكنها أحياناً تكون ضارة بالمجتمع عندما يشكل التمسك بها عقبة أمام التطور.

كذلك ارتبطتْ الحضارة بالأخلاق منذ فجر التاريخ. واعتُبرَ أن المتحضر هو الإنسان الذى يحمل الحد الأدنى من الأخلاق.

"الأخلاق هي مجموعة القيم والمعتقدات والمعايير التي يحملُها الفرد نحو البشر والأشياء والمعاني والأفعال، وتعمل على توجيه رغباته واتجاهاته، وتحدد له السلوك المقبول والسلوك المرفوض، والصواب والخطأ، والخير والشر."

وُضِعتْ الأخلاق لتنظيم حياة الإنسان فى الحضارة التى يعيش فيها. وتُعتبر فلسفة الأخلاق أحد أركان مباحث الفلسفة على مذاهبها المختلفة منذ القدم.

"فلسفة الأخلاق تبحث فى المعايير المتعلقة بالسلوك الإنسانى. وهى عادةً ما تتخذ أحد موقفين: الأول مطلق ويسمى فلسفة الأخلاق التسلطية. والثانى نسبى ويسمى فلسفة الأخلاق النسبوية."

وتختلف الأخلاق عن القانون؛ فالقانون يقصد إلى تحقيق هدف نفعي، هو ضبط السلوك وحفظ النظام العام. أمّا الأخلاق فلها هدف سامي ينزع بالأفراد نحو الكمال. فيأمر بالخير وينهى عن الشر ويدعو إلى التحلي بالفضائل. إن دائرة القانون لا تشمل إلا علاقات الإنسان بغيره من أفراد المجتمع، دون أن تهتم كثيراً بواجبه نحو نفسه. ثمَّ أن القانون لا ينظر إلا إلى أعمال الفرد الظاهرة، وليس له شأن ـ مثل الأخلاق ـ بما استقر في نيَّته أو ضميره. ويحتاج القانون على عكس الأخلاق إلى قوة لتنفيذه. وكلما ارتقت الإنسانية ضاقت المسافة بين القانون والأخلاق.

"القانون هو مجموعة قواعد عامة مجردة ملزمة تنظم العلاقات بين الأفراد داخل المجتمع."

كانت المشكلة الرئيسية فى الحضارة دائماً هى أنه رغم كل التراث الإنسانى العظيم من العادات الحميدة والأخلاق القويمة، فإن ذلك لم يمنع من تنامى الشرور والمظالم والنزاعات المأساوية المدمرة. وكانت هذه النزاعات فى كثير من الأحيان تصب فى مصلحة طبقات طفيلية داخل المجتمع، تعرف كيف

تجنى ثمار تعب ومعاناة الآخرين. وكان الشغل الشاغل لكل الأنبياء والفلاسفة والمصلحين هو كيفية التغلب على هذه المشكلة، بحيث يحصل أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع على نصيبهم من الخير والعدل والحرية.

الفصل الأول : الجيل الأول من الحضارة

عصر التسلط

إمتد هذا العصر منذ بداية الحضارة فى مصر والعراق قبل حوالى سبعة آلاف عام، حتى القرن الخامس عشر مع بداية ظهور النهضة الأوروبية.

فى الجيل الأول من الحضارة لم يكن العلم أو الفلسفة أو القانون قد نضجوا بعد. وباستثناء الحضارة اليونانية القديمة، كان النشاط الوحيد الذى يمكن أن يمثل الحضارة بشقيها (العادات والأخلاق) تمثيلاً واقعياً هو النشاط الدينى. فالإنسان دائماً يحتاج إلى مرجع قوى يؤمن به ويطمئن إليه ويستمد منه العادات الحميدة والأخلاق القويمة. والدين وحده يستطيع القيام بهذه المهمة. حيث يقوم بتعريف الإنسان بالإله الواحد الذى ليس هو المرجع فى العادات والأخلاق فحسب، ولكنه الأساس فى الحياة نفسها. وهو الذى أتى بنا إلى الدنيا. وهو الذى سوف نعود إليه فى النهاية.

والدين لا يقدم معتقدات صمّاء معزولة عن واقع الحياة، ولكنه يقدم معها منهجاً حياتياً كاملاً، يشتمل على نموذج أخلاقى رفيع، بالإضافة إلى عادات اجتماعية وطقوس وعبادات وشرائع، وكل ما يحتاج إليه الإنسان العادى ليصبح عضواً فعالاً فى الحضارة التى ينتمى إليها. كذلك يحتوى التراث الدينى على بعض العلم وبعض الفن وبعض الثقافة وبعض السياسة، وبعض التاريخ وبعض الغيبيات والأساطير، فى الحدود التى تمثل ظروف المجتمع وقت نشأة الأديان.

ولكن الإنسان العادى لا يتعامل مع اللّه مباشرة. فهو يتعامل مع سلطة تدّعى لنفسها الحكم باسم اللّه. كما أنه يتعامل مع كهنة يحتكرون لأنفسهم تفسيرَ التعاليم الدينية. وهؤلاء جميعاً بشر منهم الصالح ومنهم الفاسق. ومن هنا جاء مصطلح الأخلاق التسلطية التى ترتبط بها دائماً عادات تسلطية ترعاها السلطة وتعصمها بختم القداسة ما دام ذلك يضمن ولاء العامة لها. لهذا لم يمنع الانتماء الدينى من تنامى الصراعات والأطماع على مر العصور.

"فلسفة الأخلاق التسلطية ترى أن المعايير الأخلاقية مطلقة؛ بمعنى أن قضاياها صحيحة قطعياً وأبدياً ولا تسمح بإعادة النظر."

إعتمد الجيلُ الأول من الحضارة فى إدارة شئونه منذ فجر التاريخ على الأخلاق التسلطية. هذه الأخلاق زُرعَتْ فى الضمائر، وزُرعَتْ معها عادة مهابة السلطة وانتظار عطفِها والخوف من بطشها.

فى فلسفةِ الأخلاق التسلطية تنص السلطة على ما هو خيرٌ للإنسان، وتضعُ القوانين ومعايير السلوك، وذلك على اعتبار أن الإنسان غير قادر على معرفة الخير والشر بمفرده. ويعتمد هذا النظام على مهابة السلطة، بحيث تكون الفضيلة هى الطاعة، والخطيئة هى العصيان. وتم استغلال الدين فى كثير من الأحيان لهذا الغرض. وقام الكهنة بتطويع القيّم الدينية على نحوٍ يخدم السلطة. وأشاعوا فكرة أن المعايير الأخلاقية مطلقة، ومن ثمّ فإن قضاياها صحيحة قطعياً وأبدياً، وبالتالى فإن طاعتها واجبة وعصيانُها يستلزمُ العقاب.

فلسفة الأخلاق التسلطية تعتمد على الولاء غير النقدى لمفاهيم ثابتة؛ مع تجاهل أية عوامل جديدة تتعلق بالخبرة، أو العلم أو الزمان أو المكان. حيث النصوص دائما فوق الواقع. إنه الخضوع للسلطة غير العقلية ورهبتها، ثم تبرير ذلك عقلياً، سواء كانت هذه السلطة دينية أو دنيوية. ويرتبط ذلك دائماً باختلاط عناصر عدوانية وسحرية وتسلطية بالقيم الإنسانية النبيلة، تحتل مكانها فوق أى نقد.

وكان العامل الحاسم الذى يُكسب تلك المزاعم شرعيتها، هو السمات الفوضوية للإنسان، وعدم نضجه وعجزه عن استخدام قدراته. فكان قهرُه والسيطرة عليه هما الطريق الوحيد الممكن من أجل تحويله إلى إنسان متحضر يتعاون مع إخوانه من البشر ويصبح ذا دورٍ منتج وفعَّال فى المجتمع، وإلا فإنه سوف يُنبَذ ويُطرَد خارج الحضارة.

لكن التسلطية كانت تؤدى باستمرار إلى الإستبداد والقمع وسيادة الأقلية الحاكمة على الأغلبية المستضعفة، كما تؤدي إلى الجمود، ومعاداة التطور، وتجاهل الزمن، وانتشار الظلم والفساد، وفى

النهاية تؤدي إلى السقوط فى براثن عدوٍّ خارجى. كما أنها تعتبر أساس التعصب الدينى والقومى والعنصرى والمذهبى والطائفى.

كل الأنظمة السياسية فى عصر التسلط مارست أقصى أنواع القهر والظلم والاستعباد تحت ستار الحب والولاء والإيمان، وسمحتْ لقوى التطفل والانتهازية أن تتسلل إلى قمة الهرم الاجتماعى، وتجنى ثمارَ معاناة الملايين من البشر، ولم تُفرِّق فى ذلك بين الذين يطيعون الأخلاق التسلطية بمنتهى التعصب، وبين هؤلاء الذين يسيرون وراء مصالحهم الحمقاء الفوضوية دون تبصّر.

الفصل الثانى : الجيل الثانى من الحضارة

عصر الرشد

فى الخمسمائة عامٍ الأخيرة قامت حضارة فريدة تختلف تماماً عن جميع الحضارات السابقة، بحيث يمكن اعتبارها الجيل الثانى من الحضارة، أو ما يمكن تسميته بعصر الرشد. حيث قادتْ أوروبا هذه الحضارة وما زالت تقودُها، رغم أنها نشرتْها فى كل مكان على وجه الأرض، وحوّلتها إلى حضارة عالمية.

ويعودُ الفضل فى ذلك إلى علماء وفلاسفة التنوير، الذين حرَّروا العقل من الأوهام، وأطلقوا العنان لخيالهم، وبحثوا فى كل المجالات بلا قيود. وظهرتْ أنظمة تفهم قيمة العلم، وتستوعب معنى الإبداع. إذ فتحت هذه الأنظمة المجال للعباقرة والمبدعين كى يقدّموا أعمالهم؛ مما أدّى إلى انطلاق العلوم والفنون والفلسفة والثقافة والرياضة خطواتٍ واسعة إلى الأمام.

والتنوير حركة ثقافية تاريخية نشأتْ فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، وقامت بالدفاع عن العقلانية

ومبادئها. ورواد هذه الحركة كانوا يعتبرون مهمتهم قيادة العالم إلى التطور والحداثة، وترك التقاليد الدينية والثقافية القديمة، ونبذ الأفكار اللاعقلانية.

"التنوير هو خروج الإنسان من مرحلة القصور العقلي، وبلوغه سن النضج. حيث أن القصور العقلي يعني التبعية للآخرين، وعدم القدرة على التفكير المستقل، أو اتخاذ القرار بدون استشارة ولىِّ الأمر."

وقد كان التنوير وما أنتجه من أفكار عقلانية مُلهماً لعددٍ من الثوراتِ الاجتماعية والسياسية التي شهدتها أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. حيث أسفرتْ هذه الثورات عن قيام الدولة الحديثة. وقد ارتكز قيام هذه الدولة على سيادة جو من العقلانية. وظهرتْ أنظمة سياسية بديلة عن أنظمة القرون الوسطى. وقامتْ هذه الأنظمة بنزع الصفة الإلهية عن سلطة الملوك، فاصلةً بين الدين والسياسة.

ويُعتبرُ التنوير امتداداً لعصر النهضة الأوروبية التى بدأت في القرن الخامس عشر، وانتشرت في معظم أنحاء أوروبا، وتميزَّت بازدهار الفن والعلم والثقافة. وكان لهذا الفكر التأثير الأكبر على الحضارة. اتخذ أولئك الناس الذين عاشوا في ذلك الوقت من الثقافة الإغريقية القديمة نموذجاً يُحتذى، كما أكدوا أهمية إنسانية الإنسان. وقد أسهمتْ هذه الفلسفة إلى حدٍّ بعيد في ظهور مفهوم الديمقراطية، وتجديد الاهتمام بالتعليم والبحث العلمي.

وقد تمكن فلاسفة وعلماء التنوير من حل الكثير من ألغاز الكون. ووضعوا أسسَ الحضارة الفريدة التى نعيش فيها. وقد اعتمدوا فى ذلك على إيمانهم العميق بأن العقل البشرى إذا ما تحرَّر من استبداد السلطة، ومن سيطرة الأوهام، يستطيع أن ينطلق إلى أبعد الحدود. وأن كل شىء يبدأ من عقل الإنسان ويعود إليه. وأن الإنسان الذى حرر نفسه من السلطة التى تحمى وتهدد، هو وحده الذى يستطيع استخدام عقلِه استخداماً موضوعياً دون وهم. وأن الإنسان يستطيع أن يحارب معركته، وينتزع حريته،

ويضع معاييره، ويعيش تجربته، ويتحمل مسئولية نفسه، ويثبت ذاته دون خوف. وقد كان ذلك هو ما دعى إليه معلمو الإنسانية الكبار فى كل العصور.

بعد ذلك قطع الإنسان شوطاً كبيراً فى التعرف على ملكاته الخاصة، واسخدامها وتطويرها من أجل فهم قوانين الكون والسيطرة على الطبيعة. واستطاع الإنسان أن يدرس تاريخه على أسس موضوعية، ويفرّق بين الحقائق والخرافات. كما استطاع أن يحسِّن من أحوال معيشته ويطور من نشاطه الاقتصادى، خاصةً بعد قيام الثورة الصناعية. فظهرتْ الآلات الحديثة ووسائل المواصلات المتقدمة. وارتفع مستوى الرعاية الصحية. وزاد عدد السكان بشكل كبير. وتضاعف الإنتاج. وتراكمتْ الثروات. وانتشرت البنوك والشركات. وظهرتْ علوم جديدة كالاقتصاد والتسويق والدعاية والعلوم الطبية والهندسية.

ثمَّ تمَّ اختراع الكمبيوتر، الذى اقتحم مجالات لم يكن الإنسان ليستطيع اقتحامها بمفرده. بعد ذلك بدأت ثورة الاتصالات، التى جعلتْ من العالم قريةً واحدة. وظهر أغنياءٌ جدد بلغوا من الغنى بحيث

يُعتبر ملوك وسلاطين الأساطير القديمة فقراءَ بالنسبة لهم.

واعتمد الجيلُ الثانى من الحضارة فى إدارة شئونه على الأخلاق النسبوية التى تبتعد عن التسلط والتعصب، وتحترم حق الآخر فى أن يعتنق ما يشاء. لم تعد الأخلاق تستمد مادتها من الدين فقط، لأن معظم الأنشطة الإنسانية قد نمتْ وتشعبتْ وخرجتْ من تحت عباءة الدين.

"فلسفة الأخلاق النسبوية ترى أن قيم الفرد مستقاة من الثقافة التى ينتمى إليها. وقد تتبدل مجموعة المعايير التى يعتقد بها الفرد حسب اختلاف الشروط التاريخية."

وفلاسفة التنوير كانوا يؤمنون بأن للإنسان قدراتٍ هائلة لم يستخدمها بعدُ. ولهذا حطموا كل الأوثان، وثاروا ضد نفوذ الكهنة. ثم فصلوا الدين عن العلم وعن السياسة. ثم عادوا وسلموا بحق كل إنسان فى أن يعتقد فيما يشاء دون التدخل فى عقيدة الآخر، ثم قدَّموا عقائد حديثة كالديمقراطية والاشتراكية

وحقوق الإنسان اعتبرها البعضُ أوثاناً جديدة، كل هذا فى سبيل بحثهم المخلص عن الحقيقة. ولكن الحقيقة كانت دائماً صعبة المنال. والتسامح مع العقائد المغايرة كان دائماً تسامحاً سلبياً لا يؤيدها ولا ينفيها.

النسبوية التى هى حجر الأساس في التعددية الفكرية والديمقراطية السياسية، تدعو أصحاب المعتقدات المختلفة إلى احترام العقائد المغايرة ومعتنقيها، وبالتالي درء الفتن المحتملة وتجنب الاستبداد والقهر. ولكن مساحة التسامح السلبى الواسعة مع الثقافات المختلفة، تؤدى إلى اللامبالاة والقلق وعدم اليقين. وهكذا فإن الأخلاق التسلطية تأخذ شكلَ التعصب الذى يؤدى إلى الصدام مع الآخر. والأخلاق النسبوية تأخذ شكل التسامح السلبى الذى يؤدى إلى اللامبالاة بالآخر.

إن فلاسفة التنوير الذين نجحوا فى تحرير العقل من الأوهام، وفضحوا الزيف فى محتوى الأخلاق التسلطية، لم يقدّموا فى النهاية بديلاً أخلاقياً حاسماً يرتكز عليه الجيل الثانى من الحضارة،

واكتفوا بفكرة الأخلاق النسبوية. وكان السبب فى ذلك هو أن الإنسان الذى نضج فى الجيل الثانى من الحضارة، لم ينضج بما يكفى. وأنه رغم فهمه للطبيعة بصورة مذهلة، لم يفهم نفسه بما يكفى.

كل هذا قد مهد الطريق إلى تسلل القوى الطفيلية والانتهازية إلى قمة المجتمع، مستغلين الثغرات التى يعرفونها جيداً فى كل ثقافة. إن حصاد أعمالهم يظهر فى تلك العناصر العدوانية التسلطية الإستغلالية الموجودة فى كل القيم المعاصرة. هذه القيم المُعَدَّلة هى التى قامت عليها كل المظالم والحروب والنزاعات فى العصر الحديث.

إن الجيل الثانى من الحضارة الذى قدَّم إبداعاتٍ لا مثيل لها فى التاريخ، وأكد على حرية الإنسان وكرامته، كان رغم ذلك فريسة لأكبر احتيال فى التاريخ قام به كهنة المال والاقتصاد، الذين دفعوه لخوض أكثر الحروب دموية، وكذلك إلى تدمير الطبيعة، وتكديس السلاح، واستعباد الشعوب، بدم بارد ورعاية كاملة من الأخلاق النسبوية.

البابُ الثانى

حلولٌ علمية

لم يرتبط التقدم العلمى الهائل فى الجيل الثانى من الحضارة بتقدم مماثل فى مجال الأخلاق. لقد تغيرت أشكال السيطرة والتسلط والظلم والعدوان، وأصبحت أكثر ذكاءً. ولكنها لم تنكمش بل زادت. وزادت معها مساحة التدمير والبؤس والشقاء. ولهذا كان مطلباً ملحاً أن يتصدى العلم لمعرفة النفس الإنسانية، بعد أن كان ذلك حكراً على الفلاسفة ورجال الدين. فقد كانت نتائج مجهودات الفلاسفة ورجال الدين دائماً مخيبة للآمال، حسب النتائج الموجودة على أرض الواقع.

وفى أواخر القرن التاسع عشر، كان العقل الذى حلّ ألغاز الكواكب والمجرّات والذرة والخلية الحية، قد بلغَ به الطموح لأن يحاولَ معرفة ذاته وحل لغز الإنسان. وكانت المشكلة الرئيسية هى أن الأداة التى يستخدمها الإنسان لفهم عقله، هى العقل نفسه.

من أجل ذلك تأسس علم النفس. ولكنه كان علماً وليداً يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد، قبل أن يقدم مساهمة فعّالة فى تغيير شكل الحضارة.

ويعتبر علم النفس من العلوم الحديثة. أنشأه وأدخله لأول مرة في المختبرات العالم وليم فونت.

"وليم فونت (1832 – 1920) هو عالم ألمانى أنشأ معمل فونت في جامعة ليبزج الألمانية عام 1879، لإجراء تجارب نفسية عملية علي أشخاص حقيقيين. ويُعتبر هذا التاريخ البداية الحقيقية لعلم النفس."

وقد استخدم فونت طريقة الاستبطان أو التأمل الذاتي لحل المشكلات، وكشف الخبرات الشعورية. وأطلق فونت على هذا العلم اسم "علم دراسة الخبرة الشعورية". وبذلك يعتبر فونت المؤسس الحقيقي لعلم النفس الحديث، وهو الذي قام بفصل هذا العلم عن الفلسفة.

"علم النفس هو الدراسة العلمية لسلوك الإنسان. وذلك بهدف التوصل إلى فهم هذا السلوك بطريقة علمية وتفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه."

وفى القرن العشرين حدثت ثلاث ثورات هامة فى علم النفس: الأولى هى ظهور علم النفس السلوكى،

والثانية هى ظهور التحليل النفسى، والثالثة هى ظهور علم النفس الإنسانى.

وسوف نتناول هذه المدارس الثلاثة بشىء من التفصيل؛ لكى نعرف تأثير كل منها على موضوع فهم الإنسان بهدف الارتقاء بسلوكه وأخلاقه إلى مستوى يماثل ما حققه من تقدم علمى.

الفصل الأول : علم النفس السلوكى

كان ظهور علم النفس السلوكى هو الثورة الحقيقية الأولى فى علم النفس فى مطلع القرن العشرين، بفضل مجهودات العالم جون برودواس واطسون.

"علم النفس السلوكى يبحث فى السلوك الخارجى للإنسان مع نفىّ تام للقوى الداخلية التى تحرّضه، ما دامت صعبة وغير مفهومة."

"جون برودواس واطسون (1878- 1958) أحد أشهر علماء النفس الأمريكيين في القرن العشرين. يرجع إليه الفضل فى ابتكار المدرسة السلوكية."

يعتقد واطسون بوجود دور حاسم للتربية والبيئة المجتمعية في صياغة الشخصية الإنسانية وتحديد أنواع استجاباتها. فليس هناك معطى فطري؛ وإنما شخصية الإنسان تتشكل بفعل التربية والمؤثرات التي تتلقاها من البيئة والمجتمع. إن الإنسان حسب واطسون ليس حراً في أفعاله بل هو محكوم بالشرط البيئي والمجتمعي. ومفهوم الإنسان الحر الذي يتمتع

بالإرادة هو مفهوم تقليدي ومجرد خيال لا حظ له من الواقع.

إن مفهوم السلوك هو مكون مركزي في النسق الفلسفي لهذه المدرسة. فمن خلال هذا المفهوم لا يتحدد معنى الشخصية فحسب، بل حتى أسلوب وطريقة دراستها.

"السلوك هو محصلة لأنواع النشاط الملاحظ عند الفرد بأسلوب علمي موضوعي، عبر فترة زمنية كافية، وفي مواقف مختلفة، تتيح التعرف عليه عن قرب. وهو في الأصل مجرد استجابة فسيولوجية لمنبهات أو مثيرات خارجية."

"العادة هي نتاج تكرار السلوك. ومن ثمّ فإن ما يحدد الشخصية هو مجموع العادات التي تتميّز بها."

يؤكد واطسون أن الأفراد لا يختلفون في بنياتهم العصبية. والاختلاف الملحوظ في شخصياتهم راجع إلى الاختلاف في شروط البيئة التي يعيشون فيها. إن الذات الإنسانية لا يراها واطسون بمدلولها الديكارتي كذات مفكرة عاقلة، بل هي عنده

مجرد كينونة بيولوجية تماثل الكائن الحيواني. ولها جهاز عصبي يقوم باستجابات لمثيرات أو منبهات. وهذا التوكيد من قبل واطسون على كون الشخصية ما هى إلا سلوك، وكون السلوك ما هو إلا استجابة لمثير خارجي، كان المقصود منه هو إنجاز تأسيس علمي. وذلك بجعل علم النفس موضوع قابل للملاحظة والقياس. لذا حرص واطسون على تبديل مفاهيم علم النفس. فمصطلحات العقل والنفس والشعور، هي عنده مجرد مفاهيم ميتافيزيقية لا يمكن أن ينهض بها نسق علمي. لذا وجب استبدالها بمفاهيم تدّل على وضعيات إنسانية وبيئية قابلة للملاحظة والتجريب، مثل السلوك والعادة والمثير والاستجابة.

النظرية السلوكية الحديثة

تعودُ هذه النظرية إلى ب..سكنر، الذى يعتقدُ أن السلوكَ محكوم بنتائجه. أىْ أنَّ السلوك دالة لما يترتب عليه من آثار. فإذا كانت نتائج السلوك المتعَلَّم غير مُرضية وغير مقبولة، فإننا يمكن أن نُعدّل منها عن طريق الدعم والتعزيز، مما يؤدى إلى تشكيل سلوكيات جديدة مكتسبة ومقبولة. ولذلك فإنه من الممكن تغيير السلوك وتعديله بالتدريج. ويتم ذلك عن طريق ملاحظة الظاهرة السلوكية ملاحظة واقعية مباشرة، وفهمها ووصفها وتبويبها.

"ب. سكنر (1904-1974) هو عالم نفس أمريكى يُعتَبر أحد رواد المدرسة السلوكية ومؤسس المدرسة السلوكية الحديثة."

تتلخص نظرية سكنر فى أن التعلم يحدث عندما تعزز الاستجابات الصحيحة. بمعنى أنه إذا تم تعزيز الاستجابة لمثير معين بشكل ما، فان هذه الاستجابة ستَقوى وتتكرر مرة أخرى.

السلوك الاستجابي

هو سلوك معين ينشأ نتيجة لوجود مثيرات، وتحدث فيه الاستجابة بمجرد ظهور المثير.

الارتباط

هو ارتباط الاستجابة بالمثير.

المثير الشرطي

هو المثير الذي يشترط في تأثيره وجود تعزيز بعد الاستجابة.

التعزيز

هو المكافأة التي يحصل عليها الكائن نتيجة استجابته للمثير الشرطي.

الاشتراط الإجرائي

هو عملية التعلُّم التي تصبح فيها الاستجابة أكثر احتمالاً للحدوث أو التكرار.

قانون الاشتراط الإجرائي

تزداد قوة احتمال ظهور الاستجابة الشرطية إذا تُبعتْ بتعزيز.

قانون التعزيز

إن الكائن الحي يميلُ إلى أن يكرر ما كان يفعله وقت أن تعزز سلوكه. وإن الاستجابة يمكن أن تُعَزز، إما بتقديم مُعزز إيجابي يؤدى إلى تكرار الاستجابة، أو بتقديم مُعززسلبي يؤدى إلى استبعاد الاستجابة.

نظم التعزيز

التعزيز الإيجابي : هو تقديم مُعَزز موجَب (مكافأة) تعمل على تكرار الاستجابة لمثير مرغوب فيه. وإذا تكرر ظهور المُعَزِّز الموجب مع مثير معين يكتسب هذا المثير خاصية تعزيز السلوك.

التعزيز السلبي: هو تقديم مُعَززسالب (حذف مكافأة) تعمل على استبعاد الإستجابة لمثير غير مرغوب فيه. أما العقاب فلا يعتبره سكنر طريقة مفضلة لمنع حدوث الاستجابات غير المرغوب فيها.

شروط التعزيز الفعال

لكي ينجح التعزيز في إعطاء النتيجة المطلوبة، لابد من توافر عدة شروط: منها أن يكون فورياً بعد ظهور الاستجابة المرغوبة مباشرة، وأن يكون ملائماً ومحبوباً، وأن يكون له قيمة لدى الفرد، وأن يكون قوي التأثير. كما يجب أن يُستخدم التعزيز بنظام أو بمنطق محدد وفي وقت مناسب، بحيث يعمل في البداية على إثابة كل استجابة تؤدي إلى الاقتراب من الهدف، وبعد ذلك يتم التعزيز بصورة متقطعة.

ضبط المثير

أسلوب ضبط المثيرات أو التحكم فيها يعني إبعاد كل المثيرات والموضوعات التي اكتسبت إشتراطاً بالسلوك غير المرغوب فيه.

التشكيل

يتم تشكيل السلوك من خلال سلسلة من التقريب المتتالي. أي من خلال سلسلة من الاستجابات الناجحة والممكنة والقريبة من السلوك النهائي المطلوب أدائه. وتصبح كل استجابة من هذه الاستجابات

ممكنة عن طريق اختيار بعض الاستجابات، وتقويتها دون سواها. وبذلك يقترب السلوك تدريجياً من النمط المرغوب فيه.

الإنطفاء

الانطفاء يأتي عندما يتضاءل السلوك أو الاستجابة تدريجياً إلى أن يختفى تماماً. ويقترن ذلك بعملية حذف التعزيز (التعزيز السلبى).

تطبيق مبادئ الإشتراط من أجل خلق مجتمع مثالي وفقاً لمخطط مرسوم

1- إن اكتشاف قوانين التعلُّم هو المفتاح الرئيسى لفهم العوامل التي تكمن وراء السلوك. فالسلوك إما مُتَعلَّم؛ أو قد تم تعديله عبر عمليات التعلُّم. وهذه العمليات هى التى تُحدد المعارف والقيم والمهارات والمخاوف.

2- بما أن الشخصية هي نتاج للتعلم، فإن أنواع السلوك الشاذ أو غير المتكيف يتم تعلُّمه أيضاً. فشخصية الفرد تتكون من عادات إيجابية وأخرى

سلبية. ويتم اكتساب تلك العادات عن طريق التعزيز. وسلوكيات الأفراد تُحددها إلى درجة كبيرة أنواعُ التعزيزات التي يحصل عليها من خلال تفاعله مع البيئة.

3- السلوك يعتمد على المقدمات السابقة للسلوك كالمنبهات والمثيرات، أو الإجراءات اللاحقة للسلوك كالتعزير والعقاب. لذلك فإنه يصبح بالإمكان السيطرة على السلوك وتغييره عن طريق السيطرة على تلك العناصر.

4- الإنسان يولد حيادياً لا خيّراً ولا شريراً، ويتشكل عن طريق البيئة. وعلى هذا فهو يستجيبُ للمثيرات والمعززات التي تقدمها له البيئة. و خلال تلك العملية تتكون أنماطُ السلوك والشخصية في نهاية الأمر. ولهذا فإن هناك جبريّة في السلوك. أي أن حرية الإنسان واختياره لسلوكه أمرٌ يتمُّ تشكيله عن طريق البيئة. إن المثيرات والمعززات هي التي تُحدد طبيعة الاستجابة. إن النظرية تُنظِّر للإنسان كعامل منفعل سلبي لا يستطيع التدبُّر في أفعاله، أو

التغلب على الإغراء من حوله. وجميع تصرفاته هى انعكاسات شرطية لما حوله من مثيرات ومعززات.

العلاج السلوكي

1 - يعتمد هذا العلاج على مبدأ أن الإنسان يتعلم السلوكَ السويَّ والسلوكَ غيرَ السويٍّ من خلال تفاعله مع البيئة. و يعمل التعزيز على تدعيم السلوكيات المرغوبة وغير المرغوبة.

2 -إن اضطرابات السلوك ما هي إلا عادات خاطئة ذات ارتباط شرطى.

3 - جوهر العلاج و الإرشاد السلوكي هو إحلال سلوك ملائم محل سلوك غير ملائم. وذلك عن طريق محو و إطفاء السلوك غير الملائم، وإعادة تعليم سلوكيات جديدة.

4 - ينفرد المرشد في العلاج السلوكي بميزتين مختلفتين عمّا يسود بين المرشدين النفسيين في المدارس الأخرى، هما: التدرج في استخدام الأساليب العلاجية، وإشراك العميل في تحديد أهداف العلاج ووسائله

5- **العملية الإرشادية من وجهة النظر السلوكية هي موقف تعليمي خاص. وينظر المسترشد والمرشد إلى علاقتهما على هذا الأساس. و يُعتبر المرشد نفسُه معلماً وعاملاً مساعداً في هذه العملية.**

6- **يرتكز العلاج السلوكي بشكل كبير على المرشد. لأنه يتحكم في البرنامج العلاجي، ويقيس مدى التقدم والتحسن في حالة المسترشد، ويُبدِّل ويثبِّت الأساليبَ العلاجية.**

7- **المسترشد في المدرسة السلوكية لا يفكر أو يقيِّم ما يجري. وإنما هو كائن فى حالة تفاعل مع البيئة.**

8- **يعمل المرشد مع المسترشد من زاوية خارجية فقط. ويتم استخدام التعزيز أو العقاب من أجل تعديل السلوك وزوال الأعراض.**

نقد السلوكية الجديدة

المبدأ الكلى للسلوكية الجديدة قائم على أساس أن المصلحة الذاتية شديدة القوة. ذلك أنه باللجوءِ إليها على شكل مكافأة البيئة للفرد على قيامه بالعمل المطلوب بالمعنى المرغوب فيه، يمكن أن يتحدد سلوك الإنسان تماماً. ويشمل ذلك آلياتِ التوجيه والتعليم والمتابعة والثواب والعقاب.

السلوكية مَعنيّة بهندسة السلوك والاحتيال على الواقع. وتهدفُ إلى إيجاد التعزيزات المناسبة للحصول على السلوك المرغوب فيه. التعزيز يعتبر قصداً ثقافياً مُدَبَّراً. واستعمال السلوكية فى المجتمع يجعل الفرد منضبطاً بما يجب أن يكون. وإذا أصَّر الفردُ على أن يكون ذاته فإنه يخاطر بضياع مصالحه.

وهكذا فإن المثير المصحوب بالتعزيز المناسب يؤدى إلى سلوك. والخوف من فقدان التعزيز يؤدى إلى تكرار السلوك وتحويله إلى عادة. والاطمئنان إلى العادة يحولها إلى حب. ولا داعى للبحث عن تفسيرات أكثر صعوبة. فالطبيعة تعاملنا بهذه الطريقة بنجاح

عظيم. ولا بإس أن تعاملنا السلطة بنفس الطريقة ما دامت حسنة النية. هذه هى فلسفة السلوكية التى تم تطبيقها على نطاق واسع فى النصف الثانى من القرن العشرين كما سنرى.

الفصل الثانى : التحليل النفسى

كان ظهور التحليل النفسى هو الثورة الثانية فى علم النفس. ويعود الفضل فى ذلك إلى مجهودات العالم سيجموند فرويد.

"التحليل النفسي هو مجموعة نظريات تُشكّل منهجاً وأسلوباً علاجياً، وقد طوَّرها سيجموند فرويد وأتباعه لدراسة النفس البشرية بطريقة علمية، بغرض فهم العمليات النفسية الداخلية فى الإنسان. وهى تُستَخدم لاستكشاف العقل وتفسير السلوك وعلاج المعتلين نفسياً."

نظرية التحليل النفسي اعتمدت في تطبيقها وتطويرها على سيجموند فرويد، الذى كان له تأثير بالغ الأهمية من الناحية العملية والعلمية على الفكر المعاصر.

"سيجموند فرويد (1856 ـ 1939) هو طبيب الأعصاب النمساوي الشهير، الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. ويعتبر فرويد واحداً من آخر ممثلى عصر التنوير، وقد آمن بصدقٍ بأن العقل هو

القوة الوحيدة لدى الإنسان، وسلَّمَ بالحاجة إلى معرفة الذات، وذلك بكشف مجاهداتِ الإنسان اللاشعورية."

آمن فرويد بقدرة الإنسان على تحرير ذاته. واعتقد أنه يستطيع أن يفهم الإنسان بطريقة علمية. وهاجم آخر معقل لم يطرقه أحد من قبل، وهو الوعى الإنسانى. وابتكر نظرية التحليل النفسى. وذهب لأبعد مما ذهب إليه أىُّ إنسان فى توجيه الانتباه نحو ملاحظة وتحليل القوى اللاعقلانية التى تُحدد السلوك الإنسانى. وأظهر أن هذه القوى اللاعقلانية يمكن فهمُها عقلانياً من خلال قواعد معينة. إلا أنه فى النهاية، اضطر إلى أن يقبل بالموقف النسبوى فيما يختص بالأخلاق. وكان لهذا الموقف تأثير بالغ السوء على علم النفس وعلى علم الأخلاق معاً، وعلى الحضارة بأكملها كما يؤكد إريك فروم.

ركّز فرويد على أهمية دور البيئة الداخلية من دوافع وغرائز باعتبارها محرك السلوك. كما أكدَ على أن صراع العقل ضد الدوافع الحيوانية هو الصراع الرئيسى للإنسان. ولكن صعوبة الموضوع أدَّت فى النهاية إلى فقدان الثقة بدور العقل! وهيمنة

النسبية الأخلاقية، والتركيز على التكيف لا على الحب والعدل والخير والحرية.

وضع فرويد نظرية التحليل النفسى، وابتكر نموذجاً يمثل الجهاز النفسى للإنسان، وقضى عمره يُعدِّل ويطور من نظريته. ورغم ذلك فقد أثبتتْ النفس البشرية أنها غنية ومعقدة وصعبة الفهم، وعصية على السيطرة. ورغم أن نظرية التحليل النفسى تُدرَّس فى المدارس والجامعات إلى يومنا هذا، ورغم تأثيرها الكبير فى المجتمع بالنسبة للمرضى والأسوياء معاً، إلا أن الانتقادات الكثيرة التى وُجِّهتْ إليها كانت لا تخلو من وجاهة. وقد نما التحليل النفسى وانقسم إلى مدارس مختلفة على أيدى تلاميذ فرويد.

كان المفترض فى التحليل النفسى أن يحل كل المشاكل، ويجيب على كل الأسئلة الكبرى. فكل سلوك الإنسان ينبع من ذلك المكان الذى يُسمى الجهاز النفسى. وكل الأسئلة تبدأ من هناك، وكل الإجابات أيضا. ولا داعى للخيال أن يسرح بعيداً، فالأمور أقرب إليك مما تظن. ولعل قربَها الشديد هو

ما يجعلك لا تراها!. وها هو التحليل النفسى قد وضع الجهاز النفسى تحت الميكروسكوب، وجعل عملية فهم وتفسير كل شيء مسألة وقت. فوداعاً إذَنْ للغيبيات وللمعتقدات البعيدة عن العقل، فكل شيء قد أصبح تحت السيطرة.

لقد بدا وكأن التحليل النفسى يستطيع أن يحل محل الفلسفة والدين، ويتمكن من حل كل ألغاز الكون. ولكن النتائج لم تكن على مستوى التوقعات!. إذ اتجه التحليل النفسى إلى أمور أقل طموحاً ، أدَّت إلى خيبة أمل عميقة في العقل وقدراته. واتخذ فرويد موقفاً نسبويّاً يرى أن قيم الفرد الأخلاقية تعتمد على توازنه النفسى المشكوك أساساً فى صحته.

وتزامَنَ ذلك مع حدوث تقهقر فى الحضارة البشرية. حيث أن مبادئ الليبرالية الاقتصادية، والديمقراطية السياسية، والإيمان الدينى الذاتى، والنزعة الفردية فى الحياة الشخصية التى تُعبِّر عن الشوق إلى الحرية، سرعان ما تقهقرتْ. وظهرتْ أنظمةٌ جديدة تتنكرُ لكل شئ يؤمن البشر بأنهم كسبوه

خلال قرون الصراع. وذلك لأن جوهر ما تهدف إليه هذه الأنظمة الجديدة التى تتولى قيادة الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان هو خضوع الكل، فيما عدا حفنة من البشر تتمتع بسلطات غير محدودة.

1 - الجهاز النفسى

ينهض التحليل النفسى على مُسَلَّمَة أساسية هى الجهاز النفسى. رأى فرويد أن الجهاز النفسى يتكون من قوتين أساسيتين هما: الهو والأنا. وتنضمُّ إليهما قوة ثالثة فرعية تسمى: الأنا الأعلى. وأن الشخصية هي محصلة التفاعل بين هذه القوى.

الهو مُكَوَّن افتراضى يعتبر منبع الطاقة البيولوجية والنفسية التى يولد الفرد مزوداً بها. فهو يضم الدوافعَ الفطرية التى ترجعُ إلى ميراث النوع الإنسانى كله. إنه طبيعة الإنسان الحيوانية قبل أن يتناولها المجتمع بالتحوير والتهذيب. وهو جانب لاشعورى عميق ليس بينه وبين البيئة الخارجية صلة مباشرة. أي أنه خارج نطاق شعور الإنسان وتحَّكمه الإرادي. لذا فهو لا يعرف شيئاً عن الأخلاق والمعايير الاجتماعية، ولا يعرف شيئاً عن المنطق أو عن الزمان والمكان. إنه الصورة البدائية للشخصية. والمبدأ الذي يحكمه هو **مبدأ اللذة**، أى الشعور الذى ينتج من تحقق الإشباعات الغريزية.

يُطلق على القوى التى تمثل فى الجهاز النفسى الحاجات البدنية اسم الدوافع الغريزية. والغرائز الموجودة فى الهو تُعتَبر الممثل النفسى للتنبيهات التى تصدر عن الجسد. وفكرة الغريزة قديمة فى الفلسفة. أما فى الفكر الحديث، فإنها تعود إلى "داروين" وأبحاثه عن نظرية التطور. إذ يرى العلماء أن كل غريزة تُحرِّض نوعاً معيناً من السلوك. وكانت الخطوة الكبيرة التى خطاها فرويد أنه وحَّد كل الغرائز فى صنفين هما: غرائز حفظ الذات (غرائز الحاجة إلى الطعام والشراب)، وغرائز حفظ النوع (الغرائز الجنسية).

استخدم فرويد مصطلح: اللبيدو، للتعبير عن الغريزة الجنسية. والمقابل لمصطلح: الجوع، المعبر عن غريزة الحاجة إلى الغذاء. واعتبره مصدر كل الطاقة البيولوجية والنفسية التى تحرك الجهاز النفسى. والسبب فى ذلك هو أن كل الغرائز الأخرى تجد وسائل سريعة للحصول على إشباعات، أما الغريزة الجنسية فهى التى يؤجل إشباعها باستمرار، سواء كان ذلك التأجيل الأساسى من فترة الطفولة حتى

البلوغ، أو التأجيل الجزئى بعد البلوغ. لذلك رأى فرويد أن هذه الطاقة موجودة باستمرار وتطلب الإشباع، واعتبرها المحرك الرئيسى للسلوك.

وفرويد هو أول عالم نفس حديث يبحث فى مجال العواطف البشرية: الحب والكره والطموح والطمع والغيرة والحسد إلخ، تلك العواطف التى لم يكن يعالجها من قبل إلا الفنانين. لكنه قدَّم هذه العواطف على أنها نتاج الغريزة الجنسية. ولم يرَ طريقة لتفسير العواطف البشرية إلا تفسيرها على أساس الغرائز. فالعواطف فى رأيه خادمٌ للغرائز. ولهذا الرأى سبب مهم، هو أن فرويد يقدم نظرية علمية يحاول إثباتها بالتجربة والاستدلال، وليس مجرد تأملات فلسفية. فكان عليه الاقتراب بقدر الإمكان من الجسد أثناء بحثه فى الروح. لذلك فإنه قد ربط بين العواطف وهى أكثر الأمور غموضاً فى الجهاز النفسى، وبين الغرائز التى تعبر عن مطالب الجسد. وصار الليبدو، وهو الممثل للطاقة البيولوجية الجسدية، هو أيضا المحرك الأساسى للعواطف.

وبنى فرويد على هذه الفكرة لسنوات طويلة صرحاً ضخماً من الآراء والتحليلات والتجارب التي تجعل الغريزة الجنسية في مقدمة الصورة. وخاض الكثيرَ من الحروب. وتحّمل الكثيرَ من الانتقادات. حتى كادتْ الفكرة أن تصبح من المسلمات العلمية. وكانت قوة النظرية هى أساس ضعفها، واضطر فرويد فى النهاية إلى الاعتراف بأن نظرية اللبيدو ليستْ يقيناً علمياً.

قام نظامٌ خاص خرج من الهو وصار وسيطاً بين الهو والخارج، أطلق عليه فرويد اسم الأنا. إنه ذلك القسم من الهو الذى تَعدّلَ نتيجةَ تأثير البيئة الخارجية بواسطة جهاز الإدراك الحسّى. والأنا مهمته حفظ الذات، لذلك فإنه يتحكم فى الحركات الإرادية بطريقة تؤدى إلى تعديل البيئة الخارجية على نحو ملائم له. كما أنه يواجه دوافع الهو، ويُقرر ما إذا كان من الممكن إشباع هذه الدوافع أو إرجاؤها. فالأنا مركز الشعور والإدراك والحكم والتبصر بالعواقب. كما أنه المشرف على وسائل الحركة، أى تفريغ الإثارة فى البيئة الخارجية. يلعب الإدراك الحسى فى

الأنا نفس الدور الذى تلعبه الغريزة فى الهو. ويقول سيجموند فرويد: إن العلاقة بين الأنا والهو، تمثل راكبَ الجواد الذى يقوده إلى حيث يريد الجواد أن يذهب.

للأنا وجهان: وجهٌ يُطل على الدوافع الغريزية فى الهو، و وجه آخر يُطل على البيئة الخارجية عن طريق الحواس. و وظيفة الأنا هو التوفيق بين المطالب الغريزية فى الهو وبين البيئة الخارجية. فهو أداة التكيُّف مع البيئة، وأداة تقييم الواقع، وتكييف السلوك؛ لأنه يقوم بنقل تأثير البيئة الخارجية إلى الهو، ويحاول أن يضع مبدأ الواقع مكان مبدأ اللذة الذى يسيطر على الهو، بحيث يَعتبر الإنسان نفسه سعيداً لمجرد أنه نجا من الألم.

وبرغم أن الأنا مركز الشعور إلا أن كثيراً من عملياته لاشعورية، وتظهر للشعور إذا اقتضى الأمر ذلك فقط، ويوازن الأنا بين رغبات الهو وضغوط العالم الخارجي. فإذا فشل في ذلك أصابه القلق، ولجأ إلى تخفيف هذا القلق عن طريق الحِيَل الدفاعية كما سنرى.

ويرى فرويد أنه على امتداد فترة الطفولة تنشأ فى الأنا قوة جديدة لا مناص للأنا من أن يعمل لها حساباً تسمى الأنا الأعلى، وتمثل مطالب الوالدين والمجتمع. ويعد صحيحاً كل تصرف يصدر عن الأنا ويلبى مطالب كل من الهو والأنا الأعلى والواقع الخارجى معاً. وهذا يحدث عندما ينجح الأنا فى التوفيق بين هذه المطالب المتباينة.

فالأنا الأعلى هو الرقيب النفسى أو الضمير. وهو المستشار الأخلاقى الذى يرشد الإنسان إلى ما يجب عمله وما يجب تجنبه، ويحكم له بالصواب إن أصاب، ويحكم عليه بالخطأ إن أخطأ، ويجزيه راحةً وسروراً إن فعل ما يرضيه، ويعذبه بوخز الضمير إن حادَ عمّا يرضيه. ونستطيع القول إن الأنا الأعلى هو جملة المعايير والقيم والمعتقدات والمبادىء الأخلاقية التى قد يستخدمها الفرد فى الحكم على دوافعه وسلوكه، والتى قد يهتدى بها فى تفكيره وأفعاله. فهو يوجه وينتقد ويوقع العقاب.

والأنا الأعلى هو شخصية المرء في صورتها الأكثر تحفظاً وعقلانية. حيث لا تتحكم فيه سوى المبادئ

والقيم الأخلاقية والمجتمعية، مع البعد الكامل عن جميع الدوافع الشهوانية والغرائزية. ويبدأ تكوين الأنا الأعلى فى سن مبكرة. لذلك فهو لا شعورى إلى حدٍ كبير. وهو مثل أى استعداد يكتسبه الفرد فى طفولته، إذ يؤثر بعمق على كل مجريات أمور حياته مستقبلاً. ومع ذلك فإنه يتعرض للتعديل والتحوير بازدياد خبرات الفرد وثقافته وصلاته الاجتماعية.

الأنا الأعلى مثالي ويتجه إلى الكمال لا إلى اللذة أو الواقع. والتوتر الذى ينشأ بين مطالب الأنا الأعلى وبين ما يقوم به الأنا إنما يدرَك على أنه إحساس بالذنب.

الهو لا يتبع قواعد الأخلاق على الإطلاق، والأنا يجتهد فى أن يتبع قواعد الأخلاق. أما الأنا الأعلى فيبالغ فى اتباع قواعد الأخلاق!. وإذا استطاع الأنا أن يوازن بين الهو والأنا الأعلى والواقع عاش الفرد متوافقاً. أما إذا تغلب الهو أو الأنا الأعلى على الشخصية، أدّى ذلك إلى اضطرابها. وهذه الأنظمة الشخصية ليست مستقلة عن بعضها. ويمكن وصف الهو بأنه الجانب البيولوجي للشخصية، والأنا بالجانب

النفسى للشخصية، والأنا الأعلى بالجانب الاجتماعى للشخصية.

2 - الشعور واللاشعور

لقد فرضتْ فكرة وجود اللاشعور نفسها بقوة على علم النفس، ولكن على نحوٍ شديد الإبهام. فلفظ شعورى هو لفظ وصفى بحت، يعتمد على إدراكٍ حسى ذى طابع مباشر ويقينى. إن فعل الشعور يتعلق قبل كل شىء بالإدراكات التى تتلقاها أعضاء حواسنا من الخارج. والشعور فى علم النفس هو نفسه الشعور لدى الفلاسفة ولدى الجمهور، وكل ما عدا ذلك لدى الجهاز النفسى يعتبر لاشعوراً. فالفكرة التى تكون شعورية الآن لا تظل شعورية فى اللحظة التالية، مع أنها يمكن أن تعود شعورية تحت شروط معينة.

إن السبب فى أن بعض الأفكار لا يمكن أن تصبح شعورية، هو أن قوة ما تقاومها. هذه القوة تسمى الكبت. ويرى فرويد أن كل ما هو مكبوت فهو لاشعورى، وليس كل ما هو لاشعورى مكبوت. وأن القوة التى سببت الكبت وعملت على استمراره، إنما تظهر فى التحليل النفسى. وبالتالى فإن اللاشعورى

يمكن ترجمته شعورياً، رغم أن ذلك قد يصطدم بمقاومة بالغة.

أول ابتكارات فرويد كانت تعرّفه على العمليات النفسية فى اللاشعور. وهي منطقة افتراضية في النفس تحوي الدوافع والذكريات والمخاوف والأحاسيس والوجدان، وأفكاراً ممنوعة من الظهور في الوعي. واللاشعور يظهر بشكلٍ جليٍّ من خلال الأحلام أو عند المرضى النفسيين. ويعتبر فرويد أن السنوات الخمس الأولى من حياة الفرد تمثل أهم مرحلة في حياته. لأن خبراتها اللاشعورية تؤثر في كل مستقبله.

إن كل علم يستند إلى مشاهدات وتجارب ينقلها إلينا جهازُنا النفسى. ودراسة اللاشعور تتم بواسطة الإدراك نفسه. ويؤدى ذلك إلى نشوء الكثير من الفجوات التى يمكن ردمها باستنتاجات معقولة. فخلف الوعى تحتجب الحقيقة وهى اللاشعور. وتحت تأثير اللاشعور فإن الافكار والأحاسيس المجتمعة يمكن أن تنتقل خارج سياقها. لذلك فإن فكرتين أو صورتين مختلفتين يمكن اختزالهما في واحدة.

والأفكار يمكن أن تتحول إلى صور. والمواضيع المحددة يمكن أن تمثل برمزية فى مواضيع أخرى. والمشابهة بين الرمز والموضوع الأصلي قد تكون مبهمة.

إن قوانين المنطق لا تنطبق على عمليات اللاشعور. والتعرف على أنماط عمليات اللاشعور جعل من الممكن فهم الظاهرة النفسية. حيث نظرية اللاوعى هى إحدى الخطوات الحاسمة فى معرفتنا بالإنسان. وهى بالتأكيد أساس التحليل النفسى.

لقد ذهب فرويد أبعد مما ذهب إليه أى إنسان فى توجيه الانتباه نحو ملاحظة وتحليل القوى اللاعقلانية واللاشعورية التى تحدد أجزاء من السلوك الإنسانى. وأظهر أن هذه القوى تتبع قوانين معينة، ومن ثم يمكن فهمها عقلانياً. وكانت ثورة فرويد الحقيقية أن جعلنا نتبين الجانب اللاشعورى فى ذهن الإنسان، والطاقة التى يستخدمها لكبت الرغبات المرفوضة. وبعد فرويد لم يعد المرء مسئولا فقط عن وعيه وعن نياته الحسنة، لكن عن لاوعيه أيضاً. وصار سلوكه هو المهم لا كلماته.

لم يبرهن فرويد فقط على وجود نُظم لاواعية عموماً، بل بين تجريبيّاً عبر براهينَ ملموسة كيف تعمل هذه النظم. إن النتيجة الأكثر خصوبة وجذرية فى النظرية الفرويدية كانت فى تأسيس علم لا عقلانى هو نظرية اللاوعى. وكما لاحظ فرويد نفسه، كان ذلك امتداداً لعمل كوبرنيك وداروين ونيوتن. هؤلاء الذين طعنوا أوهام الإنسان حول مكان كوكبنا فى الكون، وحول مكان الإنسان فى الطبيعة. وهاجم فرويد آخر معقل لم يطرقه أحد من قبل، وهو اللاوعى الإنسانى.

3 - الدفاعات النفسية

بيّنَ فرويد أن الأنا عند الراشد السوى يحاول إرضاء الهو بطرق غير مباشرة حتى لا يسبب ضرراً للفرد. ويتم ذلك باستخدام الدفاعات النفسية. والدفاعات النفسية هى عمليات لاشعورية ترمي إلى تخفيف التوتر النفسي الذى قد ينشأ عن استمرار حالة الإحباط مدة طويلة. والسبب فى ذلك هو عجز المرء عن التغلب على العوائق التي تعترض إشباع رغباته.

الدفاعات النفسية جميعاً هى ميكانيزمات لا شعورية تنكر الواقع وتزّيفه. واكتشاف الدفاعات النفسية بيَّنَ أن سلوك الإنسان وقراراته وقيمه ومعتقداته ليست عقلانية مائة بالمائة. وأن معظمها جاء نتيجة ضغوط داخلية. وأن الوصول إلى توازن نفسى يعتبر أولوية لدى الأنا أهم كثيراً من الوصول إلى الحقيقة أو المصلحة، حتى لو كان ذلك التوازن زائفاً. وكان لهذا الاكتشاف تأثير غير عادى على محاولة فهم الفرد والمجتمع.

الكبت

ميكانيزم الكبت هو استبعادُ مادةٍ ما مثيرة للقلق كالدوافع والانفعالات والأفكار الشعورية المؤلمة والمخيفة والمخزية، وطردها إلى حيز اللاشعور. فالكبت يمثل الوسيلة التي يتقي بها الإنسان إدراك دوافعه الخطرة ليبقيها بعيداً عن الشعور. وبالتالي يُقلل من القلق الذي كان من الممكن أن يلحق بالذات.

إلا أن عملية الاستبعاد هذه لا تنفي وجود الدافع الذي وصل إلى اللاشعور. بمعنى أن الفكرة لم تمتْ، وإنما تم الاحتفاظ بها وبقوتها. والصراع بين الدوافع المكبوتة والذات يبلغ درجة من الوضوح مما يضطر الأنا إلى استخدام أساليب دفاعية أخرى. ويؤدى ذلك إلى مساعدة هذه الدوافع على التعبير عن نفسها بصور مقنعّة تشوه الواقع. رغم أنها تبعد الذات مؤقتاً عن الإحساس بالهزيمة والضعف.

الكبت هو العملية الدفاعية الأساسية اللاشعورية الأولى. فالأفكار التي تسبب القلق يتم

عزلُها عن الإدراك الواعي الشعوري. إنه ليس رفضاً أو إنكاراً واعياً من الفرد للواقع. ولكنها تُستَبعد من الشعور بواسطة قوى لا شعورية لا سلطان للفرد عليها.

الإنكار

ميكانيزم الإنكار هو استبعاد الأشياء التي تسبب قلقاً، أي إنكار كل ما يُهدد الذات وإبعاده عن دائرة الوعي. وقد يكون الإنكار خيالياً في بعض الأحيان، يحاول به الفرد بناء أوهام قائمة على إنكار الواقع. ثم التصرف في ضوء هذه الأوهام بغض النظر عن مدى تناقضها مع هذا الواقع.

التبرير

ميكانيزم التبرير هو أسلوب دفاعي هروبي يلجأ إليه الفرد عند قيامه بسلوك لا يقترن بالنجاح، ومحاولته تعليل الفشل بطريقة تحميه من النقد.

كما يلجأ الفرد إلى هذا الأسلوب أيضاً في بعض الأحيان، عند قيامه بأفعال لا يرتضيها المجتمع. ويكون ذلك تجنباً للاعتراف بالأسباب الحقيقية وراء السلوك. ويتم هذا التبرير رغبة من الفرد في أن

تكون تصرفاته معقولة، وتقوم على أساس من الدوافع المقبولة. لذا فإنه يلجأ إلى تفسير سلوكه تفسيراً يبين به لنفسه وللناس أن سلوكه هذا منطقي ومعقول ولاغبار عليه، وأن الدافع إلى هذا السلوك مقبول اجتماعياً.

فالتبرير عملية لا شعورية يُقنِع بها الفردُ نفسَه بأن سلوكه لم يخرج عمّا ارتضاه لنفسه من قيم ومعايير. إنه عبارة عن أعذار وأسباب تبدو للنظرة العابرة مقنعة ومنطقية، ولكنها ليست الأسباب الحقيقية والدوافع الفعلية وراء السلوك. إنه عبارة عن منطقة سلوك الفرد ومعتقداته غير المنطقية.

ويختلف التبرير عن الكذب، بأن الأول يكذب فيه الإنسان على نفسه، في حين يكون الثاني مقصود به الكذب على الناس. وهذه الآلية الدفاعية تقدم أسباباً مقبولة اجتماعياً لما يصدرعن الإنسان من سلوك يخفي وراءه حقيقة الذات. فالتبرير هو أكثر الدفاعات النفسية على الإطلاق تأثيراً فى الفرد والمجتمع. لأنه يكشف أن الكثير من الأمورتدورمن وراء ظهر الفرد. وأن معظم قيم ومعتقدات الفرد

والمجتمع ما هى فى الواقع إلا عملية تبرير، يقصد به الحصول على توازن زائف ينهار أمام أىّ اختبار.

العزل

كل فكرة لا بد لها من محتوى عاطفى. وكل عاطفة تحمل فكرة بداخلها. وميكانيزم العزل هو عبارة عن عزل الفكرة العقلانية عن محتواها العاطفى حين يحمل مضموناً مؤلماً أو مرفوضاً من المجتمع.

التسامى والإعلاء

ميكانيزم التسامى والإعلاء هو حيلة دفاعية يلجأ إليها الفرد لخفض التوتر والقلق. وهي من أهم الحيل وأفضلها وأكثرها انتشاراً. يلجأ الإنسان إلى هذه الحيلة للتعبير عن الدوافع غير المقبولة من قبل المجتمع، حيث يعبر عنها بصورة تجعلها أمراً مقبولا يحمل كل تقدير واحترام. بواسطة هذه الحيلة يستطيع الإنسان أن يرتفع بالسلوك السىء المكبوت إلى فعل آخر مقبول اجتماعياً وشخصياً.

ويعتقد فرويد أن النتاجات الفكرية والأدبية والشعرية والفنية ما هي إلا مظاهر لأفعال تم التسامي بها وإعلاؤها. فتحولت من دوافع ورغبات داخلية مكبوتة في النفس، إلى أعمال خارجية مقبولة تحوز على الرضا من أفراد المجتمع.

الإسقاط

ميكانيزم الإسقاط هو آلية نفسية شائعة ينسبُ الشخص بوساطتها أو عن طريقها للآخرين أفكاراً وعواطفَ يكون قد كبتها.

إن العناصر التي يتناولها الإسقاط، يدركها الشخص مرة أخرى بوصفها موضوعات خارجية منقطعة الصلة بالخبرة الذاتية الصادرة عنها أصلاً. فالإدراك الداخلي يلغى ويصل مضمونه إلى الشعور في شكل إدراك صادر من الخارج بعد أن يكون قد لحقه بعض التشويه.

النكوص

ميكانيزم النكوص هو الرجوع أو النكوص أو التقهقر إلى مرحلة سابقة من مراحل العمر، وممارسة

السلوك الذي كان يرتبط بتلك المرحلة. لأن هذا السلوك كان يحقق للفرد بعض النجاح في تلك المرحلة العمرية. وكان يسبب بعض الراحة والمتعة والشعور بالأمان. وأشهر مثال لذلك هو النكوص إلى الطفولة ومقاومة التصرف كشخص بالغ يتحمل المسؤلية.

التثبيت

ميكانيزم التثبيت هو توقف نمو الشخصية عند مرحلة من النضج لا تتعداها، عندما تكون مرحلة النمو التالية بمثابة تهديد خطير.

الانسحاب

ميكانيزم الانسحاب هو الهروب والابتعاد عن عوائق إشباع الحاجات والدوافع، وعن مصادر التوتر والقلق، وعن مواقف تسبب الإحباط والألم.

4 - الطبع

لم يكتفِ فرويد بإظهار القوى اللاشعورية التى تعمل فى الإنسان وهو لا يدركها، لأن التبرير العقلى يحميه من ذلك، بل بين كذلك أن هذه القوى تندمج فى نظام أطلق عليه إسم الطبع. نظرية فرويد فى الطبع اعتبرت أنه مجموع المجاهدات اللاشعورية الكامنة خلف السلوك، وربطته بالليبدو.

الطبع هو النظام الذى يتحكم فى العواطف. وهو يمثل التحريض الأساسى للسلوك رغم أن مقتضيات المصلحة والظروف المختلفة قد تعدل أو تقيد ذلك. وليس إنجاز فرويد الكبير أنه اكتشف سمات الطبع، بل وابتكر الوسائل اللازمة لدراستها.

إن فرويد قد ربط بين العواطف وبين الغرائز التى تعبر عن مطالب الجسد. وكان تفسير فرويد النظرى لبنية الطبع، هو أن الليبدو الجنسى يعتبر المصدر الذى يمنح الطاقة لسمات الطبع المختلفة، بكل ما فيها من عواطف راسخة.

فعلم الطباع عند فرويد يفترض أن التطور الليبيدى ينتقل من المرحلة النرجسية إلى المرحلة السادية إلى المرحلة التناسلية، حيث الطبع الإنتاجى السوى والناضج. والكائن المعافى هو الكائن الناضج بيولوجياً، الذى بلغ المرحلة التناسلية دون أن تحدث إعاقة لطاقته الجنسية. ويتم ذلك حسب فرويد خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل. وبذلك يتشكل الطبع مبكراً جداً. ويكون الطبع سوياً إذا لم تحدث أىّ إعاقة للطاقة خلال تلك الفترة. أما إذا توقف التطور الليبيدى فى أىّ مرحلة من هذه المراحل، أدَّى ذلك إلى نشوء طبع غير ناضج. وأسهب فرويد فى دراسة وشرح سمات الطبع الناضج وسمات الطبع غير الناضج.

رغم أن فرويد قد عثر فعلاً على المفتاح لفهم نظام الطبع وما يحتويه من عواطف متناقضة، فقد كان الخطأ الأساسى الذى وقع فيه كما يقول إريك فروم، أنه لم يفرق بين الخصال الفطرية وبين الخصال المتعلقة بالطبع المشروطة اجتماعياً. واحتاج الأمر لسنوات طويلة بعد فرويد، حتى يتم الفصل بين نظام

الطبع وما يحتويه من عواطف خاضعة للتأثيرات البيئية والاجتماعية، وبين الغرائز الخاضعة للشروط الفطرية والوراثية.

5 - العدوانية

بدأ فرويد فى مرحلة متأخرة من حياته يهتم بظاهرة العدوانية التى لم يكن لها مكان ملائم فى منظومته النفسية من قبل. وكان تصور فرويد للجهاز النفسى يقوم على أساس الصراع بين الأنا العاقلة والغرائز الحيوانية الموجودة فى الهو، والتى تحاول باستمرار تحقيق الإشباعات. هذه الغرائز تنقسم إلى نوعين: غرائز حفظ الذات، وغرائز حفظ النوع. أما العواطف والانفعالات فهى مجرد تابع للغرائز.

تحرص الأنا العاقلة على ضبط عملية فرز الإشباعات التى يمكن تحقيقها، وفصلها عن تلك التى يجب تأجيلها، حسب ظروف الواقع. وهكذا فإن الغرائز المؤجل إشباعُها يتم كبتها فى اللاشعور، بحيث تصبح الطاقة الممثلة لها (الليبدو)، هى المسئولة عن كل سلوك الإنسان، سواء تم تصعيدها إلى أعمال إبداعية بالتسامى، أو خفضها إلى سلوك عُصابى باستمرار الكبت.

"السلوك العصابى هو اضطراب فى التوازن النفسى، يظهر فى صور مختلفة كالقلق والتبدين والوسواس القهرى والاكتئاب."

والسؤال الذى كان ملحاً هو: أين مكان عواطف العدوان والتدمير والتخريب داخل هذه المنظومة؟ وإذا كان الحُبُّ من وجهة نظر فرويد يعمل خادماً للغريزة الجنسية، فهل العدوان هو أيضاً مجرد خادم آخر للغريزة الجنسية؟

إن فرويد قد اعتبر الحب اللاجنسى كالحب الأخوى وحب العمل وحب الخير، هو فى الأصل حب جنسى مُحَوَّر الهدف، وذلك عن طريق الدفاعات الخاصة بالأنا. أما ترويض العدوانية، واعتبارها مجرد تحوير آخر للغريزة الجنسية، فكان شيئاً يتعارض مع المنطق، رغم أن فرويد قد تبنى هذا الرأى لبعض الوقت. كذلك فإن تصور وجود غرائز عدوانية مستقلة بذاتها يمكن أن يضعنا أمام فرضية وجود غرائز متناقضة، مما يحول الصراع الرئيسى الذى بنى فرويد عليه كل نظرياته ـ صراع الهو ضد الأنا ـ إلى

صراع غرائز ضد غرائز. وهذا يعنى اهتزاز الأسس التى قامت عليها نظرية الليبدو ومن أصلها.

وصل فرويد فى مرحلة متأخرة من حياته إلى حل توافقى، حينما سلم بوجود نوعين متناقضين من الغرائز، هما: غرائز الحياة (غرائز حفظ الذات والغريزة الجنسية)، ضد غرائز الموت (الغرائز العدوانية)، دون أن يتنازل عن اعتقاده الراسخ بأن العواطف ما هى إلا خادم للغرائز. فالحب والحنان والتواصل والمودة تعمل لخدمة غريزة الحياة، أما الكره والحقد والعدوانية والتدمير فتعمل لخدمة غريزة الموت، بعد تحوُّر هدفها الرئيسى من العدوان على الذات إلى العدوان على الغير.

وبهذا فإن فرويد بدلاً من أن يحل اللغز قد زاده تعقيداً. وترك لورثته مشكلة مُعلقة، أدت إلى تقسيم التحليل النفسى إلى مدارس وأحزاب مختلفة، حسب رؤية تلاميذ فرويد لجوانب المشكلة. وكانت غلطة فرويد الرئيسية كما يقول إريك فروم، أنه دمج قوى لا ينتمى بعضها إلى بعض معاً. لأن العواطف

البشرية هى فى الواقع بيئية اجتماعية فى طبيعتها وليست فطرية غريزية.

وأدَّت أفكار فرويد فى النهاية إلى تعاظم دور الغريزة الجنسية وتحوُّلها إلى مرجع رئيسى يفسر كل تصرفات الإنسان. كما أن كل انتقادات فرويد للمجتمع بقيتْ منحصرة فى القمع الجنسى. وظهر فرويد فى اكتشافاته الكبيرة مفكراً ثورّياً، إلا أنه فى التطبيق بقى محاصراً باعتقاده الذى لم يتراجع عنه!.

ولم يُعر فرويد وأتباعُه العدوانيةَ اهتماماً كافياً ولمدة طويلة. وحاول هؤلاء أنفسهم أن يتكيفوا معها بصياغتهم لمصطلح غريزة التدمير المناقض لغريزة الحياة. وبذلك تخلوا عن الثنائية القديمة بين غرائز حفظ النوع وغرائز حفظ الذات، مع احتفاظهم بالمفهوم القديم للغريزة.

ولاحظ فرويد أن الأنا الأعلى الذى عَوَّل عليه كثيراً فى تحليلاته، هو فى الواقع ذو طبيعة عدوانية. فكلما غالى الإنسان فى ضبط ميوله

العدوانية المتجهة نحو الاخرين كان أناه الأعلى أكثر استبداداً، أى أكثر عدواناً. وبقيت هذه علامة استفهام كبيرة! عزاها فى البداية إلى الإحباط الغريزى، ثم عزاها بعد ذلك إلى غريزة الموت. ولم يُقدم لهذا اللغز إجابة مقنعة إلا "إريك فروم" بعد ذلك بسنوات طويلة، من خلال نظرية متكاملة تعالج كل الثغرات فى آراء سيجموند فرويد.

الفصل الثالث : علم النفس الإنسانى

يُعتبر إريك فروم واحداً من أبرز أعلام علم النفس الإنساني، الذى يمكن اعتباره الثورة الثالثة فى علم النفس.

"إريك فروم (1900- 1980) هو عالم نفس وفيلسوف أوروبي أمريكي وناقد اجتماعي، ينضم إلى قافلة المفكرين العظماء الذين يعتبرون أن التقابل بين الخير والشر هو الصراع الرئيسى للإنسان."

وقد أعاد علم النفس الإنسانى التركيز على الإنسان وعلى العلاقات بين البشر، وعلى الدفاع عن حرية الإنسان ومقاومة كل أساليب الطغيان على العقل البشرى، وعلى أن الصراع الرئيسى للإنسان هو الصراع الذى أشار إليه كل المفكرين العظام على مر التاريخ، وهو صراع الخير ضد الشر. كما ركز على أن هذا الصراع اجتماعى فى حقيقته وغير محدد غريزياً ويعتمد على العواطف الراسخة فى الطبع.

"علم النفس الإنساني هو وجهة نظر في علم النفس ظهرت أهميتها في منتصف القرن العشرين رغم

أن جذورها تعود إلى الفلسفة اليونانية وفلسفة عصر النهضة. يؤكد هذا المنهج على جوهر الفرد وقدرته على إثبات ذاته. وهو ينظر إلى الناس على أساس طبيعتهم الحسنة، ويتبنى فكرة شمولية الوجود الإنساني، ويولي اهتماماً خاصاً لعدد من الظواهر مثل الإبداع والإرادة الحرة والجهود الإنسانية."

أفكار إريك فروم قد أمكنها بالفعل أن تساهم فى فهم العمليات العقلية والعاطفية التى تحدد سلوك الإنسان وقيمه ومعتقداته، وتعالج الثغرات فى نظرية التحليل النفسى، وذلك بتغيير فكرة الصراع النفسى من أساسها. كما أمكن لأفكار إريك فروم الوصول إلى آليّات أكثر عمقاً عن كيفية عمل الجهاز النفسى، وتغيير مفهوم الصحة الذهنية، وإعادة اكتشاف فلسفة الأخلاق الإنسانية، وجعلها بالفعل قابلة للتطبيق. والأهم من ذلك هو أنها قد فتحت الطريق لابتكار وتطبيق نظم اقتصادية واجتماعية جديدة، قائمة على مبادىء الحب والعدل والخير لا على السيطرة والتسلط.

1ـ الوضع الإنسانى

يقول إريك فروم:

"فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ يحدث بزوغ فريد شبيه بالظهور الأول للحياة. يحدث ذلك عندما يكف العمل بالعملية التطورية عن أن يتحدد أساساً بالغريزة. عندما يفقد التكيُّف مع الطبيعة صفته الإجبارية، ولا يعود العمل يتبع الآليات الممنوحة وراثياً. ويولد الإنسان، أشد الحيوانات عجزاً. إن نوعاً جديداً قد نشأ متخطياً الطبيعة. وإن الحياة قد أصبحت مدركةً لذاتها.

الإنسان هو أشد الحيوانات عجزاً، إلا أن هذا نفسه هو أساس قوته. حيث ظهرتْ خصائص تميزه عن الحيوان، وتعوض هذا العجز، منها القدرة على التعلُّم، والقدرة على تصوُّر المستقبل وتذكُّر الماضى، وإدراك الذات، والإشارة إلى الأشياء والأعمال بالرموز، والعقل الذى يفكر ويفهم، والخيال الذى يتجاوز الحواس. " (2)

ويقول:

" الإنسان جزء من الطبيعة وخاضع لقوانينها الفيزيائية ولكنه يتجاوزها عن طريق الانقسام بين العقل والجسد. والعقل هو بَرَكَةُ الإنسان ولعنتُهُ فى نفس الوقت!. فهو يرغمه على أن يعالج مشكلة انقسام لا تُحل. والوجود الإنسانى يختلف عن وجود كل الكائنات الحية. فهو دائماً فى حالة من عدم التوازن. وحياة الإنسان لا يمكن أن تُعاش بتكرار نموذج نوعه. وهو يجاهد فى سبيل الحلول الجديدة التى تسبب أن يتطور، ويخلق عالمه بنفسه. إنه الهائم الأبدى الذى يبحث عن الفردوس الذى فقده، أى وحدته مع الطبيعة.

والانقسام الوجودى الثانى هو الانقسام بين الحياة والموت. والموت حقيقة لا تتبدل. والإنسان يدركُها بعمق، ولا يستطيع إلا أن يقبلها. إن افتراض خلود الروح لا يغير من الحقيقة المأساوية، وهى أن عمر الإنسان القصير لا يسمح له بتحقيق كل إمكانياته.

والتناقض الثالث هو أن الإنسان وحيدٌ؛ ومع ذلك مرتبط. إنه كيان فريد لا يتطابق مع أحد سواه. وهو

مع ذلك لا يتحمل أن يكون وحيداً غير متصل بأنداده من البشر. " (3)

ويقول:

" التناقضات الوجودية تؤدى إلى انقسامات دنيوية تاريخية من صنع الإنسان، وقابلة للحل، سواء فى الزمن الذى تحدثُ فيه، أو فى فتراتٍ لاحقةٍ من التاريخ. والعقلُ البشرىُّ عندما يواجَه بتناقض، لا يمكن أن يكون سلبياً. إنه يتحرك بهدف حل التناقض. وكل التقدم البشرى ناجمٌ عن هذه الحقيقة. وإذا مُنع الإنسان من الاستجابة لهذه التناقضات، فإنه يلجأ إلى نفيها وإنكار وجودها بالتبريرات الفردية، أو بالتبريرات المحتَذى بها اجتماعيا (الأيدولوجيات). ولكن يظل الحل الوحيد لمواجهة التناقضات الوجودية هو أن يدركَ الإنسان أنه لا يوجد معنى للحياة إلا المعنى الذى يخلعه الإنسان على حياته. بإظهار قدراته والعيش بطريقة إنتاجية. والنجاح يعنى أن يُثبت ذاتَه ويحقق السعادة، بالتحقيق الوافى لملكاته، وهى العقل والحب والإنتاج. " (4)

ويقول:

" الإنسان يفتقرُ إلى التكيُّف الغريزى مع الطبيعة، ويفتقر إلى القوة البدنية. وهو عند الولادة أشد الحيوانات عجزاً، ويحتاج للحماية وقتاً أطول، وعقله مازال مبتدئاً، ويحتاج للتعويض عن الغرائز المفقودة. " (5)

ويقول:

"مشكلة وجود الإنسان هى مشكلة فريدة فى الكون، فقد تم إخراجه من الطبيعة وهو لا يزال فيها. هو إلَهى إلى حد ما وحيوانى إلى حد ما. وضرورة العثور على حل لتناقضاته ـ مع ذاته ومع إخوانه البشر ومع الطبيعة ـ هو مصدر كل القوى النفسية التى تحركه. " (6)

ويقول:

" لا يمكن أن تُعاش حياةُ الإنسان بتكرار نموذج نوعه. وهو الحيوان الوحيد الذى يشعر أنه ليس فى موطنه، وأنه مطرود من الفردوس. إنه الحيوان الوحيد الذى يشعر أن وجوده مشكلة عليه أن يحلها. وهذا يؤدى إلى خلل التوازن المستمر. " (7)

ويقول:

"أسطورةُ الفردوس التوراتية تعبر عن الوضع بوضوح تام. فالإنسان الذى يعيش فى الجنة فى تناغم مع الطبيعة، ولكن دون أن يدرك ذاته، يبدأ تاريخه بالفعل الأول للحرية -عصيان الأمر الإلَهى -هنا يصبح مدركاً لذاته ومطروداً من الجنة. " (8)

ويقول:

" الإنسان بدعمٍ من ثقافته يوجِد نوعاً من الاستقرار النسبى لحل مشكلة اختلال التوازن الوجودى. ولكن فى عملية الخلق الذاتى للإنسان، ينقلب هذا الاستقرار مرةً بعد مرة. " (9)

إريك فروم يرى أن الإنسان يفتقرُ إلى التكيُّف الغريزى مع الطبيعة، ولا يعمل فقط بالآليات الممنوحة وراثياً. وحياة الإنسان لا يمكن أن تُعاش بتكرار نموذج معين. وهو أشد الحيوانات عجزاً. ولكنه يدرك ذاته، ولديه العقل الذى يفكر ويفهم. وهو فى حالة من الانقسام بين العقل والجسد، وبين الحياة والموت، وبين الوحدة والارتباط.

كما أن الإنسان فى حالة من عدم التوازن. ولكنه يتطور ويخلق عالمه بنفسه. وهو بدعم من ثقافته يوجِد نوعاً من الاستقرار النسبى لحل مشكلة اختلال التوازن الوجودى. ولكن فى عملية الخلق الذاتى للإنسان، ينقلب هذا الاستقرار مرة بعد مرة. ويظل الحل الوحيد من وجهة نظر فروم لمواجهة هذه التناقضات الوجودية، هو أن يدرك الإنسان أنه لا يوجد معنى للحياة إلا المعنى الذى يخلعه الإنسان على حياته. بإظهار قدراته والعيش بطريقة إنتاجية. والنجاح يعنى أن يثبت ذاته بالتحقيق الوافى لملكاته وهى العقل والحب والإنتاج.

ويقدم فروم نظرية علمية متكاملة نستطيع أن نجمعها من كتبه المختلفة، التى تتخذ عادة من نظرية التحليل النفسى لفرويد نقطة للانطلاق. وهو من خلال علاجه لنقاط الضعف فى أفكار فرويد، يبنى نظريته التى تتمحورُ حول الإنسان باعتباره وحده مقياس كل الأشياء.

2 ـ نوعان من الطبع

سوف نعرضُ هنا نظرية إريك فروم فى الطبع. وهى تمثل التصويب الأساسى لنظرية التحليل النفسى لسيجموند فرويد. وتقوم على أساس أن الطبع لا الغرائز يمثل التحريض الأساسى للسلوك. وأنه يعتمد على عوامل اجتماعية وبيئية غير وراثية أو فطرية. أى أن الطبع على عكس الغرائز كتابٌ مفتوح ذو صفحاتٍ بيضاء. والإنسان يكتب فيه ويُعدِّل ما كتبه طوال حياته، من خلال تفاعله مع نفسه ومع البيئة ومع الآخرين. مع عدم نفى فرضية فرويد الخاصة بأن السنوات الأولى من حياة الطفل يكون لها التأثير الأكبر فى عملية تشكُّل الطبع.

وينقسم الطبع إلى قسمين: طبع إنتاجى، وطبع عدوانى. وعواطف الإنسان شديدة الارتباط بالطبع لا بالغرائز. لذلك فهي أيضاً قابلة للتشكُّيل والتعديل بيئياً. وهى تنقسم أيضاً إلى قسمين: عواطف إنتاجية، وعواطف عدوانية. وفكر إريك فروم يميل إلى اعتبار أن هذا التمييز يمثل جزءاً من التمييز العام فى

الجهاز النفسى بين اتجاهين، أحدهما يهدف إلى الإنتاجية، والآخر يهدف إلى العدوانية. وهو ما يمثل الصراع الرئيسى للإنسان، أى صراع الخير ضد الشر.

يقول إريك فروم:

" أُعتبرَ فى البداية أن الطبع مرادفٌ للسلوك. ثم جاءت نظرية فرويد فى الطبع، واعتبرته المجاهدات اللاشعورية الكامنة خلف السلوك، وربطته بالليبدو. والنظرية المقترحة هنا تتبع خط فرويد، ولكنها لا تربط الطبع بالليبدو، ولكن بطريقة اتصال الشخص بالعالم وبالناس وبعملية الاستيعاب والمشاركة الاجتماعية. وهو اتصال مفتوح وغير محدد غريزياً. " (10)

ويقول:

"الطبع هو الشكل الدائم نسبياً الذى توجه فيه الطاقة الإنسانية خلال عمليتى الاستيعاب والمشاركة الاجتماعية. إنه البديل البشرى عن الجهاز الغريزى عند الحيوان. إنه بديل الغرائز المفقودة. والأساس لاتساق الفرد مع المجتمع. وهو العامل المؤثر فى اختيار الإنسان لأفكاره ومعتقداته.

وعندما يشترك أصحاب ثقافة معينة فى العناصر المهمة للطبع، يمكننا الحديث إذن عن طبع اجتماعى يجمعهم." (11)

ويقول :

"الطبع هو النظام الذى يتحكم فى العواطف. إنه البديل عن الغرائز الحيوانية المفقودة. إنه الطبيعة الثانية للإنسان بعد الغرائز. والاختلاف الناجم فى الطباع ناتج إلى حد كبير من اختلاف الظروف الاجتماعية." (12)

ويقول :

" يجب التفرقة بين الدوافع العضوية التى تسمى غرائز، وبين العواطف الراسخة فى الطبع والتى هى غير مشتركة فى كل الناس ومبرمجة وفقاً للنشوء النوعى. " (13)

ويقول:

"هذه الدراسة تهدفُ إلى تحرير العواطف كالحب والحرية والعدوانية والتعذيب والسيطرة والخضوع من زواجها الإجبارى بالغرائز. فالغرائز لها أسباب فطرية،

أما العواطف الراسخة فى الطبع فلها أسباب اجتماعية." (14)

ويقول:

"فرويد اعتقد أنه وجد الأساس الفسيولوجى للعاطفة البشرية فى اللبيدو. وفى النظرية المقدمة هنا لا يوجد أساس فسيولوجى للحاجات العاطفية. فالأساس ليس جسدياً. إنه الشخصية البشرية كلها فى تفاعلها مع العالم." (15)

ويقول:

"إن كل رغبة قوية تحرّض أعمال الإنسان راسخة الجذور فى عواطفه، وليس فى مراحل اللبيدو كما افترض فرويد. " (16)

ويقول:

"إن عواطف الإنسان الأساسية ليستْ راسخة فى الحاجات الغريزية، بل فى الشروط الخاصة بوجود الإنسان وحاجاته للتواصل مع الإنسان والطبيعة." (17)

ويقول:

"الرغبة في إشباع الجوع والجنس لا تشكل إلا جزءاً بسيطاً من التحريض البشرى. ولكن التحريضات الكبيرة هى عواطفه الإيجابية والسلبية. إنها المجاهدات من أجل الحب والحنان والتضامن والحرية والحقيقة، بالإضافة إلى السيطرة والخضوع والتدمير والنرجسية والجشع والحسد. وهى المادة التى تُصنع منها الأحلام والأديان والأساطير والأعمال الفنية. والناس الذين تحرضهم هذه العواطف يجازفون بحياتهم حين يفشلون، ولكنهم لا ينتحرون لعدم الارتواء الجنسى، أو حتى حين يتضورون جوعاً." (18)

ويقول :

"كل العواطف هى محاولات من الإنسان لحل مشكلة وجوده. كما أنها أيضاً محاولات لتفادى الجنون. " (19)

إذَنْ عواطف الإنسان الرئيسية راسخة الجذور فى نظام الطبع. وهى تتأثر بيئياً لا وراثياً. يبدأ فروم الآن شرحاً تفصيلياً لعواطف الإنسان الرئيسية، ويقسِّمها إلى قسمين: عواطف إنتاجية، وعواطف عدوانية.

العواطف الإنتاجية

التواصل

يقول إريك فروم:

"الإنسانُ يحاولُ الحصولَ على صلات جديدة مع أخيه الإنسان تحل محل الصلات القديمة التى تضبطُها الغرائز، والتى يتصف بها الوجود الحيوانى. هذه الحاجة توجد خلف كل العواطف التى تُسمى الحب بالمعنى الواسع للكلمة. الحب هو اتحادُ المرء مع شخص أو شىء خارج ذاته، بشرط أن يحافظ على انفصال ذاته وسلامتها. إنه تجربة المشاركة دونَ أوهامٍ أو خضوعٍ أو سيطرةٍ أو تملُّك. يتم ذلك فى الحب الجنسى بين الرجل والمرأة، وفى حب الأم لطفلها، وفى حب المرءِ لذاته، وفى حب المرء لأخيه. الحب الإنتاجى هو التواصل النشط والإبداعى بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والطبيعة. يتضمن الحب الإنتاجى على الدوام الاهتمام والمسئولية والاحترام والمعرفة. " (20)

الإبداع

يقول إريك فروم:

"الإنسان فى حاجة إلى تجاوز دور المخلوق السلبى الذى ألقى به فى العالم من دون معرفته أو رضاه. الإنسان يستطيع أن يخلق ويبدع. بهذا يتجاوز نفسه باعتباره مخلوقاً، ويرفع نفسه فوق سلبية وجوده. ويمكنه أن يَخلق بزرع البذور والتكاثر وإنتاج الإشياء المادية والإبداع الفنى وتقديم الأفكار وحب الآخر." (21)

الفردية

يقول إريك فروم:

"يمكن تعريف الإنسان بأنه الحيوان الذى يمكن أن يقول أنا، والذى يدرك نفسه بوصفه وجوداً منفصلاً. أما الكائن الحيوانى الذى هو فى داخل الطبيعة ولا يتجاوزها، فإنه ليس مدركاً لذاته، وليست به حاجة إلى الإحساس بالهُوِّية. وكما هو الحال مع الحاجة إلى التواصل والانتماء والابداع، فإن الحاجة إلى الإحساس بالهوّية شديد الأهمية والضرورة، بحيث لا يمكن

للإنسان أن يظل سوياً ما لم يجد سبيلاً ما إلى إشباعها."
(22)

الإيمان العقلى

يقول إريك فروم:

" الإيمان العقلى هو موقف أساسى للشخص، بنية طبع تسرى فى كل تجاربه وتمّكن الفرد من أن يواجه الواقع دون أوهام. ويدل على موقفٍ داخلىٍّ يكون لموضوعه الخاص أهمية ثانوية. والإيمان العقلى ضارب بجذوره فى الإقتناع المستقل القائم على ملاحظة المرء وتجاربهِ وتفكيره وعملِه الإنتاجى.

الإيمانُ مهمٌ فى التفكير العقلى الذى كان يُفترض أن لا موقع للإيمان فيه، بدءاً من التصور إلى الفروض إلى النظرية المتكاملة. وفى العلاقات الإنسانية يكون الإيمان والثقة فى الطرف الآخر ضرورياً لأى صداقة أو حب. وبالمعنى نفسه يكون إيماننُا بأنفسنا وقناعتنا بهوّيتنا ضرورياً لوجودنا. وأساس الإيمان العقلى هو الإنتاجية، أن يكون لدينا اليقين الذى ينمو مع العمل والإنتاج. ولا يوجد إيمان

عقلى بالسلطة، بل يوجد خضوع لها. ويشتمل الإيمان العقلى على ذلك الإيمان الصوفى بالله والحب والحق والعدل، دون ذلك الإيمان الضارب بجذوره فى الإقتناع بالعجز والخوف من السلطة. " (23)

الشك العقلى

يقول إريك فروم:

"الشك العقلى يرتاب فى افتراضات قدمتها السلطة وليس التجربة الذاتية للمرء. وقد كان الشكُّ العقلى تاريخياً أحد البواعث الكبرى للفكر والعلم الحديث." (24)

الحرية

يقول إريك فروم:

"يرى فرويد أن العقل والحرية يعتمد أحدهما على الآخر. والإنسان الذى حرر نفسه من السلطة التى تحمى وتهدد، هو وحده الذى يستطيع استخدام قوة عقله وإدراك الكون إدراكاً موضوعياً. ولن نجرؤ على التفكير تفكيراً موضوعياً إلا إذا نمونا وكففنا

عن أن نكون أطفالاً، نعتمد تماماً على السلطة ونهابها. والعكس صحيح، فلن نحرر أنفسنا من قهر السلطة إلا إذا تجاسرنا على التفكير. " (25)

ويقول:

"كثيراً ما ترتبط مشكلة الحكم الأخلاقى بمشكلة حرية الإرادة ضد الحتمية. والرأى الأول هو أن الإنسان محددٌ كلياً بالظروف التى لا يستطيع أن يسيطر عليها، وأن الفكرة القائلة بأن الإنسان حر فى قراراته ليست سوى وهم. والنتيجة هى أن الإنسان لا يمكن أن يُحاكَمَ على أعماله. والرأى العكسى هو أن الإنسان يملك حرية الإرادة التى يمكن أن يمارسها بغض النظر عن الظروف السيكلوجية والخارجية، ومن ثم فهو مسئول عن أعماله.

ويبدوا أن علم النفس الفرويدى مرغمٌ على تأييد الحتمية. فهو فى دراسته عن نشوء الطبع، يدرك أن الطبع ينشأ فى مرحلة مبكرة من حياة الطفل. وعندما يبلغ الطفل السن التى يمكنه فيها تغيير الأوضاع، يكون طبعه قد تشكل ومن الصعب تغييره. وحيث أن الخصائص الأخلاقية للشخص موغلة الجذور

في طبعه، ألا يكون صحيحاً إذن أن لا حرية لديه؟ وبالتالى لا يمكن أن يُحاكَم أخلاقيا. رغم كل ذلك فالإنسان يستطيع أن يكون فعَّالاً فى مصيره. ويقوم بتغيير القوى الداخلية والخارجية التى تتحكم فيه ويؤثر فيها، إلى حدٍ ما على الأقل." (26)

ويقول :

"الإنسان هو أشد الحيوانات عجزاً ساعة الميلاد. وتكيُّفه مع الطبيعة يعتمد أساساً على التعلُّم لا على الغريزة. إن عجز الإنسان هو الأساس الذى ينبع منه التطور. إن الضعف البيولوجى للإنسان هو شرط قيام الحضارة الإنسانية." (27)

ويقول :

"فى الحيوان سلسلة لا تنقطع من ردود الأفعال. أما الإنسان فلديه خيارات مختلفة للفعل. إن الباعث موجود ولكن رد الفعل مختلف." (28)

ويقول :

"أسطورة الفردوس التوراتية تقيم توحداً بين بداية التاريخ وفعل الاختيار الأول. لكنها تضع كلَّ

التأكيد على خطيئة هذا الفعل الأول للحرية والمعاناة المترتبة عليه. لقد عاش الإنسان فى سلام فى الجنة متناغماً مع الطبيعة، حيث لا حرية ولا اختيار ولا معاناة أيضاً. وعندما أكلَ من شجرة معرفة الخير والشر، حطم هذا التوازن وعصى إرادة الرب. وكان هذا هو الفعل الحر الأول أو بداية العقل. إن المعاناة الناتجة عن ذلك جعلتْ الإنسان وحيداً عاجزاً خائفاً. والحرية المكتسبة تحولت إلى لعنة." (29)

ويقول:

"الإنسان الذى تحرر من القيود الخارجية يجد نفسه حراً فى أن يتصرف كما يريد. ولكنه لا يعرف ماذا يريد. فيتجه للتطابق مع سلطات مجهولة ويشعر بعجزٍ أشد، يجعله يضطر إلى التطابق أكثر." (30)

ويقول :

"هل التحرر من كل القيود الأولية يجعل الفرد وحيداً منعزلاً؟ لدرجة أنه لابد وأن يهرب إلى قيد جديد. إننا نؤمن بأن العملية لا يمكن أن تشكل دائرةً مغلقة. وأن الفرد يستطيع أن يكون حراً، وفى نفس الوقت

متحداً مع العالم والآخرين والطبيعة فى آن واحد. هذه الحرية يستطيعُ الإنسان تحقيقها عندما يكون نفسه ويحقق ذاته." (31)

ويقول :

"إن الروابط الأولية التى انقطعتْ لن تترابط مرة أخرى. والفردوسُ المفقود لن يعود. وتعرُّف الإنسان على نفسه من خلال الخضوع للجماعة أو للقبيلة أو للدين، لا يُعطى إلا أماناً مصطنعاً. وليس هناك إلا حلٌ واحد هو تضامن الإنسان مع الإنسان من أجل مواجهة مصيره، بالعمل والحب والإنتاج وعمل روابط جديدة مع العالم، باعتباره فرداً حراً مستقلاً." (32)

ويقول :

"يبدوا أن التعبير الكامل عن إمكانات الإنسان هو الهدف الذى يقترب منه التطور." (33)

ويقول :

"معارك الحرية قام بها المضطهدون ضد أولئك الذين يملكون امتيازاتٍ يدافعون عنها. " (34)

ويقول :

"يتركز التاريخ حول بذل الجهد للتحرُّر من القيود السياسية والاقتصادية. والتاريخ يبرهن على أن الإنسان يستطيع أن يحكم نفسه، وأن يتخذ القرارات لنفسه، وأن يفكر ويشعر بمقدار ما يرى ذلك ملائماً. " (35)

العواطف غير الإنتاجية (العدوانية)

يقول إريك فروم:

"إن العواطف المعيقة للحياة هى فى الواقع تلبى حاجاتٍ وجودية تماماً مثل العواطف الدافعة للحياة. فكلا النوعين بشرى فى أعماقه. ويظهر النوع الثانى عندما تختفى الشروط المحققة للنوع الأول." (36)

التدمير

يقول إريك فروم :

"التدمير هو الجانب السلبى للخلق والإبداع. التدمير الخبيث غير المتكيف بيولوجياً المغروس فى الطبع

يختلف عن التدمير الدفاعى المتكيف بيولوجياً الموجود فى الغريزة.

التدميرُ إمكانية راسخة فى ماهية الإنسان، ولها من الشدة ما لأى عاطفة أخرى. ولابد أن تنشأ إرادة التدمير عندما لا يمكن إشباع إرادة الإبداع. ولكن الإبداع يؤدى إلى السعادة، والتدمير يؤدى إلى الشقاء. ولا يَستثنى المدمر ذاته من هذا الشقاء. التدمير الخبيث هو كره مجانى لا موجبَ له إلا الدوافع اللاعقلية، ثم يجرى تبريره عقلياً. فالكره غير المعقول موغل الجذور فى طبع الفرد، أما موضوعه فله أهمية ثانوية.

يبدوا أن الشغف بتدمير الحياة أو شّلها، متناسب مع انسداد السبيل أمام تفتح قدرات الشخص الانفعالية والحسيّة والجسديّة والفكريّة، إلى حد إحباط قدراته الإنتاجية. فإذا أحبط ميل الحياة إلى النمو فإن الطاقة التى سد السبيل أمامها، تتبدل وتتحول إلى طاقة مدمرة للحياة." (37)

ويقول:

"وهكذا لا يصبح الإنسان شريراً بالضرورة، ولكنه يصبح شريراً إذا غابت الظروف المناسبة لنموّه وتطوره. فالشرّ هنا هو غياب الخير والعجز عن تحقيق الحياة. وبصفة عامة، لاشيءَ لن يستخدم فى التبرير العقلى للتدميرية، فيُستخدم الحبُّ والواجبُ والضميرُ والوطنُ والدينُ كأقنعةٍ لتدمير النفس أو الآخرين. الدوافع التدميرية كامنة داخل الأشخاص، وهى تنجح دائماً فى أن تجد موضوعاً. " (38)

الأنانية

يقول إريك فروم :

"الأنانية هى اهتمام جشع من المرء بنفسه، ينشأ عن افتقار الشخص للحب الصادق لنفسه. الأنانى يريد كل شىء لنفسه، ولا يشعر بأىّ سعادة فى العطاء. هو عاجزٌ أصلاً عن حب الغير وعن حب نفسه. إن سلوكَه هو تعبيرٌ عن الافتقار إلى الإنتاجية. إنه شقىٌّ خاوٍ محبطٌ ومشغول بأن يخطف من الحياة أىّ إشباعات تعوّض فشله." (39)

النرجسية

يقول إريك فروم:

"النرجسية هى القطب المضاد للموضوعية والعقل والمحبة. وهى توجد فى كل حالة نفسية مَرَضية. وعند الشخص النرجسى لا يوجد إلا دافع واحد فقط، هو واقع عملياته الفكرية ومشاعره وحاجاته. والشكل الأكثر تطرفاً من النرجسية هو الجنون، وذلك عندما ينسحب الشخص النرجسى من الواقع، ويرتّد إلى ذاته. أما النرجسية الأوّلية، فهى حالة الطفل قبل أن يتفتح إحساسه بالفردية وبالواقع. وهى ظاهرة طبيعية تتماثل مع نمو الطفل الطبيعى." (40)

التماثل القطيعى

يقول إريك فروم:

" الكثير من الناس فى سبيل بحثهم عن هوية، يتنازلون عن حريتهم، ويُضحون بأفكارهم، من أجل أن يتحدوا مع القطيع ويتطابقوا، فينالوا بذلك الإحساس بالهوية. ولكنه فى الواقع إحساس وهمى لا يفيد. " (41)

الإيمان غير العقلى

يقول إريك فروم :

"الإيمان غير العقلى هو الخضوع الانفعالى لسلطة غير عقلية. هو الخضوع التعصّبى لأمر ما أو لسلطة ما أو لشخص ما. وهو القبول بأن يكون شيءٌ ما حقيقةً لمجرد أن الأكثرية أو السلطة تقول ذلك. " (42)

الشك غير العقلى

يقول إريك فروم :

"الشك غير العقلى هو الذى يلوّن حياة الشخص انفعالياً وفكرياً. وأكثر درجات الشك غير العقلى تطرفاً ، هو الإرغام العصابى على الشك فى كل شىء. ويُظهر التحليل النفسى أن الشكوك الإلزامية هى التعبيرات المعقلنة عن النزعات الإنفعالية اللاشعورية، الناتجة عن عدم تكامل الشخصية، وعن الإحساس بالعجز، والإفتقار إلى العون. وعندما يعجز شلل الإرادة عن تبين جذور العجز، فإن أحد الحلول البديلة هو تقبّل إيمان ما يغطس فيه الشخص وشكوكه." (43)

الخضوع والتسلط

يقول إريك فروم:

"إذا انقطعتْ الروابط الأوّليۃ التى تعطى للإنسان الأمان، وواجه الفرد المستقل البيئۃ الخارجيۃ كذات منفصلۃ تماماً، فإن أمامه أحدُ اتجاهين: الأول أن يقهر تلك الحالۃ التى لا تطاق، حالۃ العجز والوحدة، ويتقدم إلى الحريۃ الإيجابيۃ، ويتعلق بالعالم عن طريق العمل والحب والتعبير الأصيل عن قدراته الحسيۃ والعاطفيۃ والعقليۃ، بحيث يصبح مرةً أخرى متحداً مع المجتمع والطبيعۃ ونفسه على أسس ناضجۃ لا يتنازل فيها عن فرديته واستقلاله. والثانى أن يتقهقر إلى الخلف ويتنازل عن الحريۃ، ويقهر وحدته عن طريق استئصال الهوّة التى نشأت بين نفسه الفرديۃ والعالم. وهو بهذه الطريقۃ لا يتوحد مع العالم بالطريقۃ الأوليۃ التى كان مرتبطاً بها قبل أن تبزغ فرديته، لأن حقيقۃ انفصاله لا يمكن قلبها. إنه هرب من موقفٍ لا يطاق أو خطرٍ يتهدده عن طريق التنازل التام عن الفرديۃ والنضوج. إنه حل يشبه كل

الظواهر العصابية. إنه مُسِّكن للقلق لا يحل المشكلة. " (44)

ويقول:

" الهروب من الحرية هو ميلٌ إلى التخلى عن استقلال النفس الفردية، ودمجها فى شخص آخر أو جماعة. إنه البحث عن روابط ثانوية بديلاً عن الروابط الأوليّة التى ضاعت. وأشد الأشكال المميزة لذلك، هو الرغبة فى الخضوع أو السيطرة، أو كما يسميها البعض : الماسوشية والسادية. " (45)

ويقول:

" فى البداية افترضَ فرويد أن السادية ـ الماسوشية ظاهرة جنسية. ثم بعد ذلك افترض أنها تقوم على اندماج غريزة الموت بالغريزة الجنسية. يظهر هذا الاندماج فى صورة ماسوشية إذا كان موجّهاً ضد النفس. ويظهر فى صورة سادية إذا كان موجّهاً ضد الآخرين. والأساس المشترك لكل الرغبات السادية والماسوشية هو مساعدة الفرد على الهرب من شعوره الذى لا يطاق بالوحدة والعجز. إن الإنسان قد وَجدَ نفسه حراً بالمعنى السلبى، أى وحيداً مع نفسه. إنه

مذعورٌ يبحث عن شخص أو شيء يربط به نفسه. إنه لا يستطيع أن يستمر مع نفسه الفردية. ويريد أن يشعر بالأمان مرةً أخرى، بالتخلص من حمله الثقيل : نفسِه. " (46)

ويقول :

" يُظهر الأشخاص الماسوشيين تبعية للقوى التى هى خارج أنفسهم، سواء كانت هذه القوى أشخاص أو مؤسسات أو الطبيعة. وهم لا يميلون إلى تأكيد أنفسهم، ولكن إلى طاعة أوامر هذه القوى سواءٌ أكانت هذه الأوامر طبيعية أو مختلقة. وتُفسَّر هذه التبعية عقلانياً بمبررات. فيجرى تصوُّر التبعية على أنها الحب والإخلاص. ويجرى تصور المشاعر الدونية على أنها الواقع والظروف. " (47)

ويقول :

"الميول السادية التى هى على العكس تماماً نجدها فى نفس النوع من الأشخاص. وهى تنقسمُ إلى ثلاثةِ أنواع: الأول يحاول أن يسيطر تماماً على الآخرين بحيث يحوّلهم إلى آلات. والثانى يحاول استغلال الآخرين وسرقتهم واستنزافهم وقضم أى شيء يمكن أكله

فيهم، سواء أكان هذا الشيء مادياً أم عقلياً أم عاطفياً. والثالث يحاول أن يجعل الآخرين يعانون سواء معاناة جسمية أو ذهنية، بهدف إيذائهم تماماً وإذلالهم وإرباكهم." (48)

ويقول :

"إن أكثر التبريرات شهرةً للميول السادية هى أن يفترض السادي أنه يفرض قواعده عليك؛ لأنه يعرف ماهي أفضل الأمور بالنسبة لك، ومن مصلحتك أن تتبعه دون معارضه، وأنه فريد متفوق حتى أنه يتوقع من الآخرين أن يتبعوه. لقد قدّم الكثير والآن يحق له أن يحصل على ما يريد." (49)

ويقول :

"السادى يتبع موضوع ساديته، وهو فى ذلك لا يختلف فى شيء عن الماسوشى. السادى يحب موضوعاته لأنه يهيمن عليهم. وهو يعطيهم الحق فى كل شيء عدا الحرية والاستقلال. السادى يحاول أن يوّحد نفسَه بالعالم، وذلك بامتلاك السيطرة عليه." (50)

ويقول :

"النزعات الماسوشية تسببها الرغبة فى التخلص من النفس الفردية بكل نقصها وصراعاتها وشكوكها ووحدتها التى لا تطاق. غير أن ذلك يؤدّى إلى معاناة أشد. إن لاعقلانية الماسوشية تقوم على عدم جدوى الوسائل المستخدمة لحل موقف انفعالى شديد. والشعور الذى لا يُطاق يكون قويّاً لدرجة أن الشخص يصبح غيرَ قادرٍ على اختيار خط للسلوك يمثل حلاً واقعيّاً لمشكلته. إن الألم والمعاناة هم الثمن الذى يدفعه الماسوشى من أجل هدفٍ غالٍ هو السلام والسكينة. ولكنه يضطر إلى دفع المزيد والمزيد دون أن يحصل على ما دفع من أجله." (51)

ويقول:

" إن تعديم النفس البشرية ومحاولة قهر الشعور بالعجز هو جانب من جوانب الماسوشية. والجانب الاخر هو محاولة أن يصبح الإنسان جزءاً من كل أكبر خارج النفس، ينغمر فيه ويشارك فيه. ويمكن لهذا الكل أن يكون إلهاً أو ضميراً أو وطناً أو شخصاً أو مؤسسةً أو قهراً نفسيّاً. والإنسان وقد أصبح جزءاً من

قوة عظيمة يشارك فى عظمتها، يفقد تكامله كفرد، ويسّلم حريته ليحرز أماناً وكبرياءاً جديداً، بالإضافة إلى أنه يحصل على الأمان ضد عذاب الشك. إن الماسوشى ـ سواءٌ أكان سيده خارج نفسه أم تبطن فى صورة ضمير أو قهر نفسى ـ يهربُ من المسئولية النهائية عن مصيره. لأن معنى حياته وذاتيته يتحددان بالكل الأكبر الذى انغمرت فيه نفسُه." (52)

ويقول:

" قد يُبَرَّرُ القَدَرُ فلسفيّاً على أنه القانون الطبيعى، وقد يُبَرَّرُ دينيّاً على أنه إرادةُ اللّه، وقد يُبَرَّرُ أخلاقيّاً على أنه الواجب، لكنه بالنسبة للشخصية التسّلطية هو القوة الأعظم خارج الفرد، والتى لا يستطيع الفرد إزاءها عمل أىِّ شىء سوى الخضوع." (53)

ويقول :

" إن تعريف التجربة الدينية على أنها تجربة التبعيّة المطلقة هو نفسُه تعريف التجربة الماسوشية. " (54)

ويقول :

" التجربة السادية ـ الماسوشية تؤدى فى النهاية إلى إشباع وهمى وظمأ لا يرتوى. " (55)

الطبع الإنتاجى

تتجمعُ العواطف الإيجابية فى نمطٍ خاص يُسَّمى الطبع الإنتاجى، ويقابل الطبع التناسلى عند فرويد.

يقول إريك فروم:

"الطبع الإنتاجى هو الطبعُ الناضج القادر على أداء وظائفه الاجتماعية بطريقة سليمة، وهو هدفُ التنشئة ومثال فلسفة الأخلاق الإنسانية. إنه استخدام القدرات والعمل والإبداع والفضيلة والحب والتفكير والإهتمام والمسئولية والاحترام والمعرفة من أجل الإنتاج.

الحب الإنتاجى يحترمُ المحبوب ويعمل على إسعاده. والتفكير الإنتاجى يتخطى الذكاء ويستخدم العقل. فالذكاء يعالج المسائل دون أن يهتم بالماهية والمقدمات، أما العقل فيمتلك العمق الذى يصل إلى ماهية الأشياء. إنه يعتمد على الفهم والاستيعاب ولا

ينفصل عن الأهداف. فى التفكير الإنتاجى يتم التقاطب بين الذاتية والموضوعية. فيحترم المفكرُ موضوعَه ويراه كما هو لا كما يود أن يكون. ويحاول أن يرى الظاهرة الكلية ويتفهّم علاقتها بالأجزاء." (56)

الطبع غير الإنتاجى (العدوانى)

تتجمع العواطف العدوانية للإنسان فى نمط خاص بالطبع يسّمى الطبع غير الإنتاجى أو الطبع العدوانى التسلطى، ويقابل الطبع غير التناسلى عند فرويد. وينقسم إلى ثلاثة توجهات:

أ -التوجُّه التواكلى

يقول إريك فروم:

"الشخص ذو التوّجه التواكلى يؤدى نوعاً من الحميمية والقرب من الناس الذين يتوقع أن يحصل منهم على الأشياء المطلوبة، ويقيم معهم علاقة خضوع ماسوشية." (57)

ويقول:

" هو متواضع قابل للتكيُّف، ومتوافق اجتماعياً وسياسياً، متفائل واثق حسّاس. ولكنه سلبى لا رأى له ولا مبادىء، ذليل تعوزه الثقة بالنفس، غير واقعى جبان ضعيف الشخصية عاطفى رغبّى التفكير سهل الانخداع. " (58)

إن الخضوع فى رأيى لا يرتبط على الإطلاق بشخصية هادئة مسالمة. والخاضع لسلطة خارجية سواء سلطة الكاهن أو الحاكم أو الملك أو المدير أو الزوج أو الشرطى أو المال أو القانون أو غيره، يرتبط دائماً بقلب عدوانى وعقل فوضوى، وهو لا يستطيع أن يفرغ طاقته العدوانية ضد القوة الخاضع لها، لذلك فإنه عادةً ما يجد طريقة لإفراغ هذه الطاقة بين أقرانه المستضعفين مثله. إنه عادةً ما يكون حَمَلاً بين الأقوياء، ولكنه يتحول إلى ذئب بين الضعفاء.

كما أن الخاضع إذا ما حصل على القليل من الحرية أمام السلطة الخاضع لها، فإنه يتمرد ويتحول إلى النقيض تماماً، حتى ولو كان يعرف أن هذه حرية مؤقتة، وأنه غداً سوف يعود إلى سابق عهده، وربما

يتلقى العقاب. إنه لا ينظر أبعد من وقع أقدامه، ويسرع إلى استخدام تلك الحرية المؤقتة التى لا يعرف أصلاً كيف يستخدمها، فيفسد الأمور ويصطدم بالحائط، مدعيّاً أن الأقدار هى التى دفعته فى هذا الاتجاه.

ب - التوّجه الإستغلالى

يقول إريك فروم:

" الشخص ذو التوجه الاستغلالى يؤدى نوعاً من الحميمية والقرب من الناس الذين يتوقع أن يحصل منهم على الأشياء المطلوبة. ولكنه يقيم معهم علاقة سادية قائمة على التحكم والسيطرة. " (59)

ويقول :

" هو نشيطٌ قادرٌ على اتخاذ المبادرة، فخورٌ مندفع جرىءٌ واثق بنفسه فاتن، ولكنه استغلالى عدوانى متمركز حول ذاته معجب بنفسه، متهور، متعجرف، شيطان. " (60)

التوجُّه الاستغلالى هو الوجه الآخر للتوجُّه التواكلى. وهو يرتبط بعاطفة التسلط التى هى أيضا

تعتبر الوجه الآخر لعاطفة الخضوع. وكثيراً ما يظهر التوّجهان معاً فى نفس الشخص. وتحدد الظروف الخارجية مدى إمكانية سيادة أحدهما على الشخصية فى المستقبل.

ج - التوّجه الادخارى

يقول إريك فروم :

" الشخص ذو التوّجه الادخارى يتوقع امتلاك الأشياء بعدم الاستهلاك، والنأى عن أيّة علاقة حميمة مع البيئة الخارجية. هو شحيحٌ بالمال والأفكار والمشاعر. الحب بالنسبة له امتلاك. هو محافظٌ، عملى، اقتصادى، محترس، متحفظ، حَذرٌ، ثابت متشبث، هادئ فى حالة الشدة، ولكنه عديم الخيال بخيل بارد قلق بليد موسوس." (61)

يتتبع فروم المنابع المختلفة لهوى التملك في النظام الاقتصادي والاجتماعي، وفي الثقافة واللغة، ويقف عند دور التوجُّه الادّخارى في إذكاء وترسيخ هذا الهوى. التوجه الادخارى هو الطبع الذي يجعل كل الطاقة الحيوية للشخص تتوجه نحو التملك

والاحتفاظ والتوفير وتخزين المال والممتلكات. وهي طاقة تسيطر على كل مشاعر الشخص وسلوكه وأنشطته وتجعل من المال مفتاحاً لكل شئ بحيث يأخذ قيمة رمزية استثنائية.

يقول إريك فروم :

"في حضارةٍ يعتبر هدفها الأسمى هو التملك، والتملك أكثر فأكثر، وحيث يمكن فيها أن نقول عن فرد من الأفراد بأنه (يساوي مليون دولار) كيف يمكن أن يكون هناك اختيار بين التملك والكينونة؟ فالتملك يبدوا وكأنه هو جوهر الكينونة. والذي لا يملك شيئاً لا يساوي شيئاً. ومع ذلك فإن معلمي الحياة الكبار قد جعلوا من الثنائية (التملك أو الكينونة) الموضوع الرئيسي لمذاهبهم. يعلمنا بوذا إن علينا من أجل أن نقدر على التوصل إلى مستوى رفيع من التطور الإنساني ألاّ نترك شهوة التملك تستولي علينا. " (62)

ويقول :

" لقد علم ماركس بأن الرفاهية رذيلة مثلها في ذلك

مثل الفقر. وأن علينا أن نجعل هدفنا هو أن نكون أحسن لا أن نمتلك أكثـر. " (63)

ويقول :

" لقد تأثرتُ غاية التأثر لعدة سنوات بهذا التمييز بين التملك أو الكينونة. وحاولتُ أن أبحث عن أساسه التجريبي في دراسة عينة من الأفراد والمجموعات من خلال منهج التحليل النفسي. وما اكتشفتُه قادني إلى الاستنتاج بأن هذا التمييز هو نفس التمييز بين حب الحياة وحب الموت. وأنه يمثل المشكل الأساسي في الوجود. وأن التجربة تميل إلى إبراز أن التملك والكينونة هما نمطان بحيث أن القوى المناظرة لكل منهما تحدد طباع الأفراد ومختلف نماذج الطباع الاجتماعية. " (64)

تتسم أفكار إريك فروم بالطابع النقدي للمجتمع المعاصر الذي يسجل انكسار وعود الحرية والعقلانية التي بشّرَتْ بها فلسفة التنوير. كما يدعو فروم إلى ضرورة إيجاد طبع إيجابي منتج يتجه نحو تحقيق الأداء الوظيفي الجيد للفرد في المجتمع. هذا الطبع المنتج هو طبع الفرد البالغ العاقل القادر على إقامة

علاقات مع الآخرين، وعلى الإنتاج وعلى تصريف طاقة الحب والتعاون. إن فروم يدعو إلى أنسنة المجتمع، ويرى أنه يتعين إصلاح المجتمع وتكييفه مع حاجات الفرد، وإقامة كل مكوِّنات الحياة الاجتماعية من أمن وهوية ومعرفة وثقة على أساس الكينونة لا على أساس التملك.

3 - نوعان من الضمير

إن فكر إريك فروم الإنسانى يرى أن الإنسان يخلق عالمه بنفسه. وأن شخصيته الكلية فى صراع دائم بين اتجاهين: إتجاه الخير واتجاه الشر، وأن طاقته النفسية إن لم تُفرَّغ فى سلوك إنتاجى كاتجاهٍ رئيسى فإنها سوف تُفرَّغ فى سلوك عدوانى كاتجاهٍ ثانوى، وأن هذا يعتمد أصلاً على عوامل بيئية واجتماعية أكثر من اعتماده على عوامل غريزية فطرية. هذا الفكر أدّى إلى اكتشاف التمييز بين الطبع الإنتاجى بكل ما يحتويه من عواطف إنتاجية، والطبع العدوانى بكل ما يحتويه من عواطف عدوانية مدمرة.

وها هو يكتشف تمييزاً آخر هو التمييز بين الضمير الإنتاجى والضمير العدوانى. فالأول يشجع السلوك ويدفعه إلى الأمام ويتسامح معه ويمنحه القوة والإرادة والتصميم على اجتياز العقبات. والثانى يحاصره وينتقده ويتسلط عليه باستمرار، وهو مصدر الشعور بالذنب والندم. الأول ضرورى لتقييم والحكم

على السلوك الإنتاجى الذى يُفترض أن يكون الاتجاه العام للشخصية ويتفق مع التطور، ويحقق به الإنسان ذاته ومعنى وجوده، والثانى مخصص لتقييم والحكم على السلوك العدوانى الذى يُفترض أن يكون الاتجاه الثانوى للشخصية رغم شيوعه.

يتفق إريك فروم مع فرويد، فى أن الضمير هو مخزن القيم الأخلاقية. وأنه بيئى اجتماعى يكتبه الإنسان بنفسه، ويستمد ذلك من تجاربه الذاتية ومن إرشادات الأسرة وضوابط المجتمع. ويختلف مع فرويد فى أنه يرى أن الأنا العليا الفرويدية ماهى إلا الضمير التسلطى العدوانى. أى أنه الحالة الخاصة للضمير لا الحالة العامة الحامية المشجعة.

يقول إريك فروم :

" الضمير هو نداء الإنسان لذاته. ليس هناك قول أدعى للفخر من قول الإنسان : سأعمل حسب ضميرى. " (65)

ويقول :

" ومع ذلك لا يوجد فعل من أفعال البطش أو عدم

الاكتراث لم يجد تبريراً عقلياً بأنه إملاء للضمير. " (66)

ويقول :

"فى الفلسفات القديمة اُعتُبرَ أن الضمير هو ملكة الحكم وإرادة الصواب. ولكنه اُعتُبرَ كذلك أنه الإدراك الداخلى للمبادئ الأخلاقية." (67)

ويقول:

"سوف نميّز بين الضمير التسلطى والضمير الإنسانى فى إطار التفرقة بين فلسفة الأخلاق التسّلطيّة وفلسفة الأخلاق الإنسانية." (68)

ويقول :

"صوت الضمير خافت، ونحن لم نتعلم كيف نصغى إليه لأننا غالباً لا ننفرد بأنفسنا." (69)

ويقول :

"الضمير التسلطى هو صوت السلطة الخارجية الذى تغلغل فى النفس. هو صوت الأب أو السلطة أو الثقافة أو الدولة. " (70)

ويقول :

"الضمير ناظم للسلوك أشد من خشية السلطات والرغبة فى الثواب والخوف من العقاب." (71)

ويقول :

" إن قوانين السلطة الخارجية أصبحت جزءاً من ذات المرء. وهو لا يستطيع الهروب من نفسه، ومن ثمَّ من السلطة التى أصبحتْ جزءاً منه. وفى هذه الحالة لم يعد مهماً تقييم القيم باعتبارها خيّرة أو شريرة، فقد أصبحت جزءاً من ضميره وانتهى الأمر." (72)

ويقول :

"لا يَضعف الضمير التسلطى إلا فى حالة ضعف السلطة الخارجية. ويتم إسقاط صورة الكمال على السلطة الخارجية ما دامت قوية. ويؤدى هذا التفاعل بين الإسقاط الخارجى والإدخال الذاتى إلى اقتناع لا يتزعزع بالسلطة. وهو اقتناع يكون فى مأمن من كل دليل تجريبى مناقض. " (73)

ويقول :

"الضمير التسلطى الجيّد هو وعى إرضاء السلطة

الخارجية المُنغلّة داخل الذات، والضمير التسلطى السّيء هو وعى إغضابها. الأول ينتج إحساساً بالأمن، والثانى ينتج إحساساً بالخوف والاضطراب. وهذا الأمر يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببنية الطبع. فالطبع التواكلى يجد أمنه الداخلى بأن يغدوا جزءاً من سلطة يشعر بأنها أكبر وأقوى منه. ويعتمد شعوره باليقين والهوّية على هذا التواكل. ورفض السلطة له يعنى أنه مرمى فى الفراغ يواجه رعب العدم. إن رضا السلطة عنه وحتى عقابها له أفضل من الرفض. وقصة قابيل وهابيل التوراتية تُذكّر بأن أول جريمة فى التاريخ كان سببها نبذ الإله لقابيل وذلك برفض قرابينه." (74)

ويقول :

" فى حالة الضمير العدوانى التسلطى تكون الطاعة هى الفضيلة والعصيان هو الإثم الأكبر. والاعتراف بتفوق السلطة شيء أساسى، فالسلطة لديها القوة والحكمة والسحر. ومهما كانت صلاحيات صاحب السلطة، وسواء كان هو الإله أو الزعيم الذى أرسله

القدر، فإن التفاوت بينه وبين الإنسان هو العقيدة الأساسية للضمير التسلطى.

صاحب السلطة هو صاحب المشيئة الوحيدة. وهو الذى ليس وسيلة بل غاية فى حد ذاته. وهو الذى يخلق ويبدع. لذلك فإن أى محاولة من الإنسان للإنتاج والخلق والإبداع تولد الشعور بالذنب، وتزيد من خضوعه لكى يُكفِّر عن محاولته بأن يكون خالقَ نفسه وبانيها. وفى هذه الحالة يتعين على الإنسان أن يعامل نفسه بنفس القسوة والصرامة التى يتوقعها من صاحب السلطة.

فالطبع التسلطى وقد أُعيقتْ إنتاجيته يُظهر قدراً معيناً من السادية والتدميرية أمام نفسه. هذه الطاقات التدميرية يطلقها تولى المرء دور السلطة وهيمنته على نفسه باعتباره عبداً.

وقد حلل فرويد هذه النزعة التدميرية للأنا العليا وعزاها فى البداية إلى الإحباط الغريزى، ثم عزاها بعد ذلك إلى غريزة الموت. لكن المهم هو أن الضمير التسلطى تغذيه التدميرية، وبذلك يتاح لها

أن تعمل تحت قناع الفضيلة. ويمكن لجلّ الأنظمة السياسية والدينية في التاريخ أن تسد الحاجة إلى الأمثلة التي توضح الضمير التسلطي. وينطبق هذا أيضاً على دور السلطة المجهولة التي تؤثر في الأسرة والمجتمع المعاصر.

لم تغيّر أنظمة التربية الليبرالية والتقدمية هذا الوضع بمقدار ما يود المرء أن يعتقد. وحلّت محل السلطة الصريحة سلطة مجهولة، ومحل الأوامر الصريحة صيّغ تأسستْ علمياً، ومحل (لا تفعل كذا)، (أنت لا تريد أن تفعل كذا). " (75)

ويقول :

"الضمير الإنساني هو استجابة شخصيتنا الكلية لأدائها الوظيفي الصحيح أو لاختلال هذا الأداء. إنه صوتُ ذواتنا الحقيقية يدعونا للعودة إلى أنفسنا." (76)

ويقول :

" الأعمال المفيدة تنتج الضمير الإنساني الجيّد، والأعمال الضارة تنتج الضمير الإنساني السّيء." (77)

ويقول :

" الضمير الإنسانى هو الحارس على سلامتنا وصوت الرعاية المحبة لأنفسنا. إنه يشتمل على ماهية تجاربنا الأخلاقية والمبادئ التى تعلمناها. " (78)

ويقول:

"إذا كان الضمير التسلطى مشغول بالطاعة والواجب والانضباط، فإن غاية الضمير الإنسانى هو الإنتاجية، ومن ثم السعادة التى هى قرين العيش الإنتاجى." (79)

ويقول:

" كلما عاش المرء إنتاجياً قوى ضميره فزادت إنتاجيته، وكلما قل عيشه الإنتاجى ضعف ضميره فقلت إنتاجيته. أى أن الضمير يضعف كلما احتاج المرء إليه أكثر. " (80)

4 - نوعان من الهوَ ونوعان من الأنا

يقول إريك فروم:

"فرويد فى تنقيحه لنظريته المتمحورة حول الدافع الجنسى، صاغ نظرية جديدة غدت فيها عاطفة التدمير (غريزة الموت) مساوية فى قوتها لعاطفة الحب (غريزة الحياة). " (81)

ويقول :

"العدوانية عند فرويد غريزة يغذيها ينبوع طاقة دائم التدفق، وليس بالضرورة أن تكون استجابة لمؤثرات خارجية." (82)

ويقول :

"أهم تمييز يندرج تحت صنف العدوان هو التمييز بين العدوان الدفاعى المتكيّف بيولوجياً المنسوب للغرائز، وبين العدوان الخبيث غير المتكيّف بيولوجياً المنسوب للطبع." (83)

ويقول :

"القوى المدمرة للحياة فى شخص من الأشخاص تتناسب عكسياً مع قوى دفع الحياة، فكلما قويتْ أحداهما

ضعفتْ الأخرى. وبهذا يبدوا أن مقدار التدميرية يزداد كلما انسدّ السبيلُ أمام تفتح قدرات الشخص. " (84)

ويقول :

"إذا أُحبط ميل الحياة إلى النمو وإلى أن تُعاش، فإن الطاقة التى سُد السبيلُ أمامها تخضع لتبدُّل وتتحول إلى طاقة مدمرة للحياة. إن التدميرية هى حصيلة الحياة غير المُعاشة. وتلك الأحوال الفردية والاجتماعية التى تؤدى إلى سد السبيل أمام الطاقة الدافعة للحياة، تُنتج التدميرية التى هى بدورها المصدر الذى تنشأ منه تجليات الشر المتنوعة." (85)

بيَّن فرويد فى نظريته الأحدث، أن هناك نوعين من الهوَ: الأول هو غرائز الحياة، والثانى هو الغريزة العدوانية التى أسماها غريزة موت. أما أفكار إريك فروم فقد حررتْ الهو من التهمة التى لصقتْ به جرّاء نظرية فرويد عن الشر الفطرى فى الإنسان، المتمثل فى غريزة الموت التى تقابل وتساوى غريزة الحياة، والتى إما أن تعبر عن نفسها فى صورة عدوانية على الشخص نفسه، أو تغير مسارها وتتحول إلى عدوانية على الخارج.

فقد لاحظ فروم أن هذه العدوانية الفطرية لا تشكل إلا نسبة بسيطة من مجمل العدوانية، وأنها عدوانية دفاعية تخدم الحياة. أما الشق الأعظم من العدوانية التى نعانى منها، فهى عاطفة لا معقولة راسخة الجذور فى الطبع. إنها عبارة عن كره مجانى لا مبرر له، ويجرى تبريره عقلياً بأنه كره استجابى لمثير خارجى. وهى تَنتج من تفاعل الشخص مع المجتمع، وبالتالى فإنها مصدر الشر كله.

إن التدميرية غير العقلية لدى الشخص تتناسب مع انسداد السبيل أمام مد جسور الحياة. لذلك فإن الطاقة التى سُد السبيلُ أمامها تخضع لتبدل وتتحول إلى طاقة مدمرة للحياة. ولكنها أيضاً قابلة للسيطرة، ويمكن تغييرها وتقليصها فى حالة وصول المجتمع إلى حالة من النضج والتطور الملائم. وبالتالى فالإنسان يعتبر خيّر فى الأصل ما دامت العدوانية الغريزية لديه دفاعية ولا تعادى الحياة، بل هى خادمة لها.

يقول إريك فروم :

" الإنسان ليس شريراً بالضرورة، ولكن يصبح شريراً

إذا كانت الظروف المناسبة لنموه وتطوره غير موجودة. فليس للشر وجود مستقل بذاته، إنه غياب الخير نتيجة الإخفاق فى تحقيق الحياة. " (86)

الشر هو انعدام الخير، وهو الظلام مقابل النور، والعدم مقابل الوجود، والموت مقابل الحياة، والشيطان مقابل الملاك، والقوة السلبية غير العقلية وغير المنطقية مقابل العقل المنظمّ الموضوعى.

يقول إرك فروم :

" تبين الدرجة التى يستخدمها الإنسان لتبرير العواطف اللامعقولة عِظَمَ المسافة التى مازال على الإنسان أن يبلغها ليصبح إنساناً عاقلاً. " (87)

ويقول :

"الإنسان أصلاً حيوان يحيا فى قطيع. والصواب والخطأ والحق والباطل هى أمور يحددها القطيع. ولا يهدد وجودنا خطر أعظم من فقدان هذه الصلة بالقطيع. ولكننا أيضاً إنسانيون، نملك الوعى بأنفسنا، ونملك العقل المستقل عن القطيع." (88)

ويقول:

"التبرير هو محاولة للمصالحة بين طبيعتنا القطيعية وبين قدرتنا على التفكير. وهذا هو ما يحدونا لأنْ نضفى المعقولية على أمور لامعقولة. وازدواجية الفكر والثنائية القائمة بين العقل المستقل والعقل المبرر هى الثنائية الأساسية فى الإنسان، التى تعبر عن الحاجة إلى التعايش بين القيد والحرية. وتفتُّحُ العقل وبلوغه الكامل يعتمدان على بلوغ الحرية الكاملة والاستقلال.

وحتى يتحقق ذلك، يميلُ الإنسان إلى قبول الحقيقة التى تقررها الغالبية العظمى من الجماعة حتى لا ينعزل. وقليل من الأفراد هم الذين يتحملون هذه العزلة، ويقولون الحق على ما فيه من خطر فقدان حماية القطيع. وهؤلاء هم الأبطال الحقيقيون للجنس البشرى، ولولاهم لكنا ما نزال نعيش فى كهوف." (89)

ويقول:

"فى معظم التبريرات يعتقدُ الشخصُ الذى يستخدمها أنها صادقة. وهو لا يريد من الآخرين أن يؤمنوا بها

فحسب، بل يريد أن يؤمن بها هو نفسه. وكلما أراد أن يحمى نفسه من إدراك دافعه الحقيقى، كلما كان إيمانه بها أشد حرارة." (90)

ويقول:

"ربما كانت دراسة عملية التبرير هى أهم إسهام أضافه التحليل النفسى إلى التقدم البشرى. فقد فتح بعداً جديداً للحقيقة، وأثبت أن إيمان المرء بما يقوله إيماناً مخلصاً لا يكفى للتفرقة بين أننا أمام حقيقة أم أمام عملية تبرير." (91)

أشار إريك فروم بوضوح إلى الثنائية القائمة بين العقل الموضوعى المستقل والعقل المبرر. وهنا يمكن القول أن هناك نوعين من الأنا: الأول هو الأنا الموضوعية التى تبحث عن النظام والعلم والحب والإنتاج، والثانى هو الأنا الفوضوية المبررة.

نستنتج من ذلك أنه يمكن أيضاً تحرير الأنا من تهمة التبرير وتزييف الواقع ضد هجمات غرائز مكبوتة لم يتم إشباعها. إن معظم هذه التبريرات موجهة أصلاً ضد عواطف عدوانية راسخة فى الطبع

ومكيفة اجتماعياً كما يقول إريك فروم. وبالتالى فإنه مع تطور المجتمع ونضوجه واتجاهه للخير والعمل والإنتاج، يمكن أن تتقلص التبريرات الخطيرة التى تحركها العواطف العدوانية المتضخمة بفعل المجتمع، ولا يتبقى إلا التبريرات الناتجة عن كبت الغرائز وهى هينة.

بذلك تعود للأنا مصداقيتها واحترامها وقدرتها على فهم الأمور وسن القوانين ووضع القيم والمبادىء والمعايير بطريقة موضوعية، دون أن تضطر إلى تزييف الواقع والإيمان والتمسك والدفاع عن هذا التزييف.

وما الدفاعات النفسية إذن إلا تعبيرٌ عن الأنا الفوضوية التى تمنطق اللامنطق، وتتعاون مع الطبع العدوانى، وتضع التبريرات المناسبة لتحريضاته. ولكن يقابلها فى الأساس الأنا الموضوعية المنتظمة التى تتعاون مع الطبع الإنتاجى، ويمكن الوثوق فى تحليلاتها ومعالجتها للأمور، لأنها ليستْ فى حاجة إلى أية تبريرات.

الأنا الحرة المستقلة المنتظمة الموضوعية هى الاتجاه العام للشخصية الذى تحقق به ذاتها ومعنى وجودها. والأنا اللاعقلانية المبررة هى الاتجاه الثانوى الذى يجب أن يتقلص تدريجياً بفعل التطور واتجاه الفرد والمجتمع إلى العمل والإنتاجية، لا إلى الهدم والتسلط.

الإنسان يستخدم العقل المبرر فقط عندما يحتاج إلى تمرير أى قرار خاص بالهدم. لأن الهدم خطير !! والذى يموت لا يعود للحياة.

إن الإيمان بعقيدة معينة قد يحتاج إلى عقل موضوعى، والموافقة على أن هذه العقيدة تعادى آخرين، وتمرير كل العناصر السحرية والغيبية داخل هذه العقيدة، يحتاج إلى عقل مبرر. إن تأييد زعيم شجاع يحتاج إلى عقل موضوعى، وتأييد قراراته بإعدام المعارضين يحتاج إلى عقل مبرر. إن تأييد النظم والقوانين يحتاج إلى عقل موضوعى، وتأييد العقوبات يحتاج إلى عقل مبرر. إن الالتزام بسلوك معين يحتاج إلى عقل موضوعى، وإلغاء سلوك معين يحتاج إلى عقل مبرر.

5- تغيير فكرة الصراع النفسى

يعتقد فرويد أن الطاقة النفسية حسب التحليل النفسي مشتقة بكاملها من الغريزة. والأنا والأنا الأعلى ليسا إلا أدوات للتكيف مع الواقع. ليس هناك إذن إلا الطاقة التي هي جنسية من حيث أصلها. وهى تحملنا عن طريق التصعيد والتسامي على السعي نحو أهداف راقية اجتماعياً كالعمل والفن والإبداع بدلاً من السعي نحو المتعة الحيوانية. كما أن كبتها يسبب الأعراض العصابية.

كان فرويد يقدم نظرية علمية. لذلك كان لابد وأن يكون هناك طاقة حقيقية بيولوجية تحرك القوى النفسية. هذه الطاقة من الطبيعى أن يحركها الدافع الذى لم يتم إشباعه. ولما كانت الغرائز الجنسية هى التى يؤجل إشباعها ، فقد أدى هذا المنطق إلى اعتبارها المسئولة عن كل الطاقة التى تحرك الجهاز النفسى. وكعادة فرويد عندما يطلق مصطلحات جديدة على القوى التى يقوم بدراستها

حتى لا يتم الخلط بين ما يقصده وبين أى معانى شائعة، فقد أطلق عليها اسماً جديداً هو الليبيدو.

واستمراراً لهذا التسلسل المنطقى، فقد كان من الطبيعى أن يتم كبت هذه الطاقة الزائدة غير المتصرفة. ورأى فرويد أن تحويل هذه الطاقة إلى اهتمامات أخرى سوّية؛ مثل ممارسة الرياضة أو الإبداع الفنى هو تسامٍ أو إعلاءٌ لهذه الطاقة. أما العجز عن ذلك فيجعلها تسبب ضغوطاً ومضايقاتٍ للشخصية يتم مقاومتها بالدفاعات النفسية، أو يتم الاستسلام لها بظهور الأعراض العصابية.

لذلك كان تحليل وعلاج الأمراض العصابية يعتمد على البحث فى المكبوت ذى الطابع الجنسى. وكان من الضرورى لبحث فرويد العميق فى موضوع الطبع أن يؤدى إلى ما أدى إليه من ظهور فكرة كبت الليبيدو خلال مراحل النمو المختلفة.

وهكذا كان أمرٌ منطقى يؤدى إلى آخر، بحيث يصبح من الصعب تصور وجود خطأ ما، ناهيك عن معرفة مكان الخطأ. ولكن كانت الثغرة الكبرى

التى تزلزل هذا البحث من أساسه هى عدم وجود مكان للعدوانية داخل كل هذا البناء الدقيق. وهذا بالضبط ما أزعج فرويد زمناً طويلاً. وعندما قبل فرويد فى النهاية إدخال العدوانية داخل منظومته النفسية، لم يكن مستعداً لهدم كل ما بناه.

إن الأمر كان يحتاج إلى تغيير فى فكرة الصراع النفسى من أساسها. وفرويد كان عالماً قضى عمره فى عملٍ شاقٍ ودءوب من أجل دراسة وتحليل وعلاج الحالات المرضية التى تثبت نظريته. إن فرويد الفيلسوف كان خادماً لفرويد العالم. لهذا فإنه ترك علامة استفهام كبيرة لتلاميذه الذين عالجوا الأمر بنفس الطريقة العلمية البيروقراطية دون أن يتوصلوا إلى نتائج ثورية.

فالعدوانية ضرورية لحماية الحياة. وهى رغبة فى مسح وهدم وإزالة كل ما يعوق الحياة. والهدم أمرٌ لا يحتاج إلى عقل منظم موضوعى. لذلك فإنه بجانب العقل المنظم الدافع للحياة، هناك العقل الفوضوى الهادم لكل ما يعوق الحياة.

الأنا خرجتْ من الهوَ، ثم خرجتْ منها أجهزة استشارية هى الأنا الأعلى والطبع. وهى أجهزة مفتوحة غير محددة غريزياً تطورها الأنا، وتكتب بياناتها باستخدام خبرات الإنسان وتفاعلاته مع البيئة. وحيث أن فرويد نفسه قد أثبت قابلية العقل للخداع، وأننا فى معظم الأحوال لا نتعامل مع العقل الموضوعى، ولكن نتعامل مع عقل مبرر، فقد كانت النتيجة أن الغرائز الموروثة هى الشىء الوحيد المؤكد، وماعدا ذلك فكل شىء نسبى غير مضمون.

هذه النتيجة هى عكس ما كان فرويد يبحث عنه خلال نصف قرن من العمل المضنى. والسبب فى كل ذلك هو الخلل الرئيسى فى الفكرة التى قامت عليها كل النظرية، وهى أن الصراع الرئيسى للإنسان هو صراع الأنا ضد الهو، أى صراع العقل ضد الجسد.

ومن هنا تبرز أهمية فلسفة إريك فروم التى تؤكد على أن الصراع الرئيسى للإنسان هو صراع بين الحياة والموت، أى بين العمل والحب والإنتاج من جهة، وبين العدوانية والتسلط والتدمير من جهة أخرى.

إن التدمير المحدد غريزياً ليس هو المشكلة الرئيسية للإنسان، وإنما مشكلته هى ذلك التدمير الخبيث الكامن فى العواطف الراسخة فى الطبع. وهو أمر مفتوح وغير محدد غريزياً، يولد وينمو من خلال تفاعل الفرد مع المجتمع. ولذلك فإنه من الممكن نظرياً السيطرة عليه إذا أراد المجتمع ذلك.

الحقيقة كما يراها إريك فروم، هى أن المجتمع السوى يمكنه محاصرة الشر ما دامت جذور الشر راسخة فى سمات الطبع، وهو البرنامج الذى يطوره الإنسان بنفسه من خلال تفاعله مع نفسه ومع المجتمع. وهذا هو السر وراء أفكار فروم الغنية عن علم النفس الإنسانى وفلسفة الأخلاق الإنسانية والدين الإنسانى والمجتمع السوى.

وبهذا اختلف إريك فروم مع نظرية الطبع التى قدمها سيجموند فرويد. فقد حاول فرويد أن يدمج علم الطباع مع نظريته فى اللبيدو. وفسر سمات الطبع المختلفة بأنها تصعيدات للغريزة الجنسية أو تشكيلات إرتدادية ضدها. بينما يرى فروم أن سمات

الطبع تتحدد من خلال اتصال الشخص بالعالم وبذاته وبالآخرين. ويتفق الاثنان فى أن الأمر مفتوح وغير محدد غريزياً.

أيضاً اختلف إريك فروم مع فرويد فى رؤيته للأنا الأعلى. فالأنا الأعلى عند فرويد هي صوت السلطة التى نتوق إلى إرضائها ونخشى إغضابها وقد زُرعت داخلنا. أى أن الأنا الأعلى هو ضميرنا التسلطى. أما الأنا الأعلى عند فروم فهو الضمير الإنسانى الذى هو استجابة شخصيتنا الكلية لأدائها الوظيفى الصحيح أو لاختلال هذا الأداء. الأنا الأعلى هنا هو الحالة السوية، والأنا الأعلى عند فرويد هو الحالة غير السوية.

بصفة عامة يمكن اعتبار سيكلوجية فروم هى الحالة العامة التى ترى الجوانب المشرقة فى الإنسان؛ كالضمير الإنسانى والشخصية الإيجابية والتوجه الإنتاجى. وسيكلوجية فرويد هى الحالة الخاصة التى ترى المجتمع التسلطى والسلوك العصابى.

إريك فروم يبحث عن الحق والخير والجمال من خلال نظرية علمية. إنه يحاول أن يعيد للإنسان الأمل الذى أضاعه فرويد. إنه يحاول أن يبرِّئ ساحة الغرائز الفطرية من مسئولية الشر. فالشر الأكبر عند فروم اجتماعى، وبالتالى يمكن إصلاحه. أما الشر الغريزى فهو قليل ومشروع وضرورى لأسباب دفاعية.

إن العودة إلى التمييز التاريخى بين البناء والهدم، أو بين الإنتاجية والعدوانية، أو بين الخير والشر، يعيدنا إلى نقطة البداية حيث لا مفر من التسليم بضرورة الشر وبالصعوبات التى تواجهها الأنا فى تمييز الحد الفاصل للهدم الذى يجب أن تتوقف عنده والذى بعده يصبح الهدم شرّاً حقيقياً. وهنا نلاحظ أن العدوانية تنقسم إلى عدة مستويات تتدرج حتى تصبح شرّاً حقيقياً، ويمكن تصورها كالاتى: عدوانية دفاعية من أجل حماية الذات من خطر واقعى، وعدوانية من أجل إعادة البناء عندما يكون من الطبيعى إلغاء سلوك أو فكرة أو علاقة تعوق الحياة. وهذه كلها عدوانية غريزية. ثم تبدأ العدوانية التى يكون للأنا فيها دورٌ كبيرٌ، وتبدأ

بالعدوانية الاستباقية ضد خطر محتمل، ثم العدوانية التبريرية ضمن علاقات معَّقدة، ثم العدوانية الخبيثة التى مصدرها العواطف الكامنة فى الطبع.

يستنتج فروم أن الشر ليس حتمياً ولكنه اجتماعى فى طبعه. وأن طبيعة الإنسان ليست شريرة. وأن آدم لم يعد ملعوناً إلى الأبد ولكنه يحمل فى داخله بذور الخير، ويستحق فرصة أخرى يثبت فيها ذاته بدون معجزات خارجية. هذا الاستنتاج يقودُنا إلى نتائج خطيرة. فالأخلاق التسلطية والنظم الشمولية لم يعد لها مبرر، لأنها مصممة أصلاً لترويض طبيعة الإنسان التى كان من المفترض أن تكون شريرة وضعيفة أمام الضغوط.

وهناك ملاحظة مهمة تدعم رأى إريك فروم، وهى أن العواطف التى تنتقل بيئياً سواء كانت طيّبة أو عدوانية، تبدوا أقوى كثيراً من العواطف التى تنتقل فطرياً لسبب مهم هو أن الثانية معنيّة فقط بحماية فرد واحد، أما الأولى فهى نتاج سلوك أجيال من البشر، تراكمتْ وكونتْ ميراثاً ضخماً ينتقل من

جيل إلى آخر. وهذا أيضاً من الأمور التى تخص الإنسان وحده دون سائر المخلوقات. فالجزء البيئى الاجتماعى يورّث أيضا مثل الجزء الفطرى. ولكنه أكبر حجماً وأسرع انتقالاً. إنه محصلة التعاطف بين أجيال من البشر، وكذلك محصلة العدوانية بينهم. هذه المحصلة الضخمة تورّث إلى الأجيال الجديدة عن طريق نظام العواطف الكامن فى الطبع.

الإنسان يستحق فرصة أخرى لينضج ويتعاون مع أخيه الإنسان فى سبيل إظهار طاقة الحب والخير الكامنة لديه. وهذا يقتضى البحث عن نُظُمٍ اجتماعية واقتصادية جديدة مبنية على هذا المفهوم.

الصراع الرئيسى ليس صراع الإنسان ضد الحيوان الذى بداخله، ولكنه صراع الخير ضد الشر. ليس صراع الأنا ضد الهو، ولكنه صراع الأنا والهو معاً فى جانبهما الخيّر ضد جانبهما الشرير.

وعلى الرغم من أن إريك فروم قد درس التأثير النفسى للبيئة الثقافية والاجتماعية بعمق، فإنه لم

يتخذ اتجاهاً نسبوياً. وذلك لأنه لا يغيب عنه الأساس البيولوجى للإنسان. إنه يعتبر أن المسألة البشرية مشروطة تاريخياً دون أن يقلل من دلالة العوامل البيولوجية التى تمثل الأساس عند فرويد.

إن الإنسان عند فرويد نظام مغلق زودته الطبيعة بدوافع بيولوجية، وبالتالى يُفسَّر تطور شخصيته على أنه رد فعل للإشباعات والإحباطات الخاصة بهذه الدوافع. بينما يقوم فهم فروم للشخصية الإنسانية على أساس أنها نظام مفتوح يعتمد على علاقة الإنسان بالعالم وبالآخرين وبالطبيعة. وعلى هذا فإن علم النفس الفردى هو أساساً علم نفس اجتماعى.

يقول إريك فروم :

" الرؤية البيئويّة هى فى أساسها نسبويّة. والإنسان وفقاً لها صحيفة بيضاء من الورق تكتبُ عليها الثقافة نصها، ويقوْلبُه مجتمعه قولبةً أحسن أو أسوأ. ويعد الأحسن والأسوأ حكمين قيمين من الناحية الأخلاقية أو الدينية. والموقف المتخذ هنا يفترض أن الإنسان له غاية لازمة هى أن تكوين الإنسان البيولوجى هو مصدر معايير العيش. وهو يمتلك

إمكانية النشوء والنمو الكاملين شريطة أن تكون الشروط الخارجية الممنوحة له مفضية الى هذه الغاية." (92)

ويقول:

"العوامل التاريخية تُعرقل نمو بعض الخصال وتضع الحدود التى يقفُ الإنسان فى داخلها. ومع ذلك فعقل الإنسان ومشيئته عاملان قويّان فى عملية نموه فردياً واجتماعياً. فليس التاريخ هو الذى يصنع الإنسان، بل الإنسان يصنع نفسه فى العملية التاريخية." (93)

6 - تطوير مفهوم التحليل النفسى

يقول سيجموند فرويد:

"إن تقسيم الحياة النفسية إلى حياة نفسية واعية وحياة نفسية لاواعية يُشّكل المقدمة الكبرى والأساسية في التحليل النفسي." (94)

يعتمد التحليل النفسى على فكرة أن إظهار الدوافع اللاشعورية المكبوتة وكشفها للشعور عن طريق التداعى الحر يفقدها القدرة على إحداث المرض. وقد ابتكر فرويد طريقة التداعى الحر، وهي تتلخص فى أن يُطلب من المريض أن يُطلق العنان لأفكاره لتسترسل من تلقاء نفسها دون قيد أو شرط، فيتكلم بأى شيءٍ يخطر بباله دون إخفاء تفاصيل مهما كانت تافهة أو مؤلمة أو معيبة، ويؤدى ذلك إلى انتقال الدوافع المكبوتة من اللاشعور إلى الشعور تمهيداً للسيطرة عليها.

يقول إريك فروم :

" الإنسان عند فرويد مناهض لما هو اجتماعى، وعلى

المجتمع أن يروّضه بأن يسمح له بإشباع بعض دوافعه الغريزية وكبت البعض الآخر. " (95)

ويقول :

" بما أن الحب بالنسبة لفرويد هو فى ماهيته رغبة جنسية، فهو مرغم على افتراض التناقض بين الحب والتماسك الاجتماعى الذى يفرض قيوداً على الغريزة الجنسية. فهو يعتبر أن التضامن والحب الاخوّى مجرد رغبات جنسية محوَّرة الهدف، لا مشاعر أوليّة راسخة فى الإنسان. " (96)

ويقول :

"فرويد على أساس مفهومه للإنسان، مفهوم رغبته المتأصلة فى الإشباع الجنسى أو التدمير، لابد أن يصل إلى صورة الصراع الضرورى بين الحضارة التى تقيد هذا الإشباع وبين الصحة النفسية. فالإنسان المتحضر أكثر أماناً، ويتمتع بالعلم والفن، ولكنه من المحتم عليه أن يكون عصابياً بسبب الإحباط المستمر لغرائزه، ذلك الإحباط الذى تفرضه عليه الحضارة." (97)

ويقول :

"انتقل التحليل النفسى من علاج الأمراض إلى مساعدة الإنسان على التكيّف. والتكيّف هو قدرة الشخص على التصرف مثل الغالبية العظمى من الناس فى الحضارة التى ينتمى إليها. " (98)

فرويد من منطلق فلسفة الصراع بين العقل والجسد ، يرى أن تخفيف الحضارة من ضغوطها على الأنا والهو معاً يمثل أساس الصحة الذهنية. وبالتالى فإنه على الحضارة أن تعترف بحق العقل في أن يعمل وينطلق بمنتهى الحرية دون أية قيود من السلطة، كما أن عليها أن تجد طريقة لإشباع دوافع الفرد المختلفة. وكذلك فإنه على الفرد أيضاً أن يتكيّف مع المجتمع. فالتكيّف هو أساس الصحة الذهنية.

يقول إريك فروم:

"معرفة الحقيقة تعتبر هدفاً أساسياً فى التحليل النفسى." (99)

ويقول :

"التحليل النفسى يدّعى أنه يقدم جواباً على اللغز

الذى يطرحه الفكر الإنسانى. وفى الواقع فإنه يمتلك بعض الأجوبة على بعض جوانب اللغز." (100)

ويقول:

"الغالبية العظمى من الناس فى حضارتنا متكيّفون تكيفاً حسناً لأنهم تخلّوا عن الكفاح من أجل الاستقلال بصورة أسرع من الشخص العصابى. فقد قبلوا حكم الأغلبية وتجنبوا ألم الصراع. ومع أنهم أصّحاء من وجهة نظر التكيُّف، إلا أنهم مرضى من حيث عدم قدرتهم على تحقيق أهدافهم." (101)

الإنسان يصمتُ طويلاً ثم يثور. وعندما يسترد حريته يجد أنه لا مفر أمامه من أن يسلمها مرة أخرى لقوى التسلط الجديدة، على وعد بأن تكون رحيمة به هذه المرة.

يقول إريك فروم:

" يتعلم الشخص فى التحليل النفسى أى تبريراته تنبع من مصدر عاطفى، وأيها ينبع من نماذج تقليدية لا وزن لها ولا جذور." (102)

ويقول :

" ما من فكرة أقوى من منبتها العاطفى. لذلك فإن التحليل النفسى للمذاهب الفكرية يهدف إلى فهم الواقع الإنسانى وراء هذه المذاهب، ويبين ما إذا كان المذهب الفكرى ينبت من منبت عاطفى قوى أم أنه مجرد رأى فارغ. " (103)

وهكذا فإن التحليل النفسى أدى إلى فقدان الثقة بالعقل، وبيّنَ أن الكثير من آراء الإنسان المخلصة ومعتقداته ما هى إلا عملية تبرير، مما دعم من فكرة النسبوّية الأخلاقية. إن التحليل النفسى الذى خرج ليكتشف العقل المستقل انتهى به الحال إلى اكتشاف العقل المبرِّر.

يقول إريك فروم :

" إننى أنظر إلى المجتمع كجهة خلاّقة. والإنسان من خلال تفاعله مع المجتمع يخلق ذاته ويطوّر من شخصيته. " (104)

ويقول :

" النظرة الثانية للتحليل النفسى ترى أنه علاج للروح.

وأن هناك قوانين ثابتة فُطرتْ عليها الطبيعة الإنسانية. وأن هذه القوانين لا يمكن أن تنتهك فى أى حضارة دون أن تصيب الإنسان بضرر بالغ. وأن الصحة العقلية لا يمكن أن تنفصل عن المشكلة الإنسانية الأساسية، وهى تحقيق الإنسان لذاته من استقلال وتكامل وقدرة على الحب. " (105)

المفهوم الجديد للتحليل النفسى يقوم على مساعدة الإنسان على تحقيق ذاته بالفهم والحب والحرية والإنتاجية. ويتم ذلك من خلال التعاون بين الفرد والمجتمع.

يقول إريك فروم:

" ما العلاج التحليلى فى جوهره إلا محاولة لمساعدة الإنسان على اكتساب أو استعادة مقدرته على الحب. " (106)

المفهوم الجديد للصحة الذهنية يتوافق مع المفهوم الجديد للتحليل النفسى. إنه يعتمد على تحقيق الفرد لذاته بالعمل والإنتاجية والحب والحرية. وهذا يحتاج إلى إصلاح اجتماعى فى المقام

الأول. وبهذا يصبح المفهوم الحالى للصحة النفسية المبنى على تكيُّف الفرد مع حاجات المجتمع المعتل أصلاً غير كافٍ. ويصبح تبنى الفرد لقيم المجتمع التسلطية أو النسبوية وما يتبع ذلك من سلوك لا عقلانى، هو المؤشر الأساسى الدال على الاعتلال النفسى.

يقول إريك فروم:

" الصحة الذهنية لا يمكن أن تُعرَّف على أنها تكيُّف الفرد مع المجتمع، بل أنها على العكس يجب أن تُعرَّف على أساس تكيُّف المجتمع مع حاجات الفرد. " (107)

ويقول :

" يمكن القول أن مفهوم الصحة الذهنية يترتب على وجود الشروط الإنسانية، وهى ذاتها فى كل العصور وكل الثقافات. وتتميز الصحة الذهنية بالقدرة على الحب والإبداع والنضوج والإحساس بالهوية القائم على خبرة المرء نفسه بوصفه فاعلاً ومؤثراً، وبفهم الواقع داخل النفس وخارجها، أى بتنمية العقل والموضوعية. " (108)

ويقول :

" يتوافق هذا المفهوم للصحة النفسية مع المعايير التى نص عليها معلموا الجنس البشرى العظام فى كل زمان ومكان. " (109)

ويقول :

" المجتمع السوى يدعم قدرة الإنسان على محبة إخوانه البشر، وعلى العمل بإبداعية، وعلى امتلاك إحساس بالذات قائم على خبرة قدراته الإنتاجية. " (110)

ويقول :

" إن التحليل النفسي ليس مجرد علاج بل هو وسيلة لفهم الذات، أي أنه وسيلة في فن العيش. وهي في رأيي أهم وظيفة يمكن أن تكون للتحليل النفسي. " (111)

لا مفر للإنسان الذي يود أن يتقدم في الحياة من فهم نفسه بعمق إذا أراد أن يفهم الذين حوله ويفهم العالم. فالمعرفة النفسية ليستْ اختصاصاً قد نميل

إليه أو لا نميل، بل هي ضرورة لنا جميعاً مهما كانت اختصاصاتنا.

يقول إريك فروم :

" والرأي عندي أن التحليل الاجتماعي والتحليل الشخصي لا يمكن أن ينفصلا. إنهما جزء من الرؤية النقدية لواقع الحياة الإنسانية. " (112)

ويقول :

" إن منهج التدريب على التحليل النفسي يجب أن يتضمن دراسة التاريخ وتاريخ الدين والأساطير والرمزية والفلسفة، أي كل المنتجات الأساسية للذهن الإنساني. " (113)

في دراسة البنية الاجتماعية يؤكد فروم على أهمية العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسيكولوجية والنماذج الثقافية. وينبّه على الدور الهام لما يسميه (الطبع الاجتماعي) في تكوين الطبع الفردي. ويرى أن على المحلل النفسي ألا يكتفي بدراسة علم النفس لفهم الإنسان.

7- إحياء فلسفة الأخلاق الإنسانية

"فلسفة الأخلاق الإنسانية تقوم على أساس أن الإنسان وحده هو الذى يمكن أن يكون مقياس الفضيلة أو الإثم. فالخير هو ما هو خير للإنسان. والشر هو ما يضر بالإنسان. والمقياس الوحيد للقيمة الأخلاقية هو حسن حال الإنسان. الإنسان نفسه هو مانح المعيار وموضوع المعيار على السواء."

كان بروتاغوراس هو من قال :

" إن الإنسان هو مقياس الأشياء جميعاً. "

بهذا كان بروتاغوراس هو أول من رأى أن المعرفة لا تتعلق بالموضوع المُعرَّف فقط بل بالذات العارفة أيضاً. وأشار إلى أن الحكم على الأشياء ينبغي ألا يُطلَب من العالم الخارجي، وإنما من داخل الإنسان.

"بروتاغوراس (485 – 410 ق.م) هو فيلسوف يونانى عاش قبل سقراط وأفلاطون وأرسطو. أطلق على نفسه لقب سفسطائي أي المُعَلم، ومن ثمّ شاعت التسمية. ولم تكتسب الكلمة معناها السلبي إلا بعد

القرن الخامس قبل الميلاد حينما انتقد أفلاطون فلسفته."

بدا وكأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى الحقيقة ولا يستحق كل هذا التكريم. وذلك فى ضوء طبيعته الشريرة، وغرائزه الحيوانية، وعقله التبريرى، وعواطفه العدوانية، وضميره التسلطى، واختلاف حكمه على الأمور باختلاف ظروفه وأهوائه وثقافته ومعلوماته والضغوط الواقعة عليه. ولكن فلسفة إريك فروم تشير إلى أن الإنسان خيّرٌ فى طبيعته، وأن الأصل فى الإنسان هو غرائز الحياة، والعقل الموضوعى، والعواطف الإنتاجية، والضمير الإنسانى. ولهذا فإنه مازال فى مقدور الإنسان تقرير مصيره وسَنْ قيمه الأخلاقية بدون خوف من سلطة خارجية لا عقلانية أو سلطة داخلية لاعقلانية أيضاً. مع أن الاثنتين هما فى الواقع تجليات لشىء واحد، فالأولى هى إسقاط خارجى للثانية.

يقول إريك فروم :

"معرفة الإنسان هى الأساس فى سَنْ المعايير والقيم."

(114)

ويقول :

"فلسفة الأخلاق هى علم النفس التطبيقى." (115)

ويقول :

"السلطة العقلية مصدرها الكفاءة، وهى مؤقتة، ويعتمد قبولها على إنجازها." (116)

ويقول :

"إن السيطرة من جانب أحد الأطراف، والخوف من جانب الطرف الآخر هما على الدوام الدُعامتان التى تُبنى عليهما السلطة غير العقلية." (117)

ويقول :

" تُنكِر فلسفة الأخلاق التسلطية قدرة الإنسان على معرفة الخير والشر. ومانح المعيار هو على الدوام سلطة تتجاوز الفرد. ولا يتأسس نظام كهذا على العقل والمعرفة، بل على مهابة السلطة وشعور التابع بالضعف والاتكال. وينجم التسليم للسلطة بصنع القرار عن قدرتها السحرية، مما يجعل قراراتها غير قابلة للنقاش. وتتضح فلسفة الأخلاق التسلطية فى التشابه بين نشوء الحكم الأخلاقى عند الطفل،

ونشوء حكم القيم الأهوج عند البالغ العادى. "
(118)

ويقول :

" فى الأخلاق السلطوية ليس هناك إلا خطيئة واحدة هى عدم الطاعة. " (119)

ويقول :

" جوهر الوثنية لا يكون فى عبادة هذا الصنم أو ذاك، ولكنه موقف إنسانى يتصف بتأليه هذه الأشياء والخضوع لها بدلاً من تحقيق غايات أسمى كالحب أو الحرية. " (120)

ويقول :

" ليست التماثيل فقط هى الأصنام، بل الكلمات والآلات والزعماء والدولة والسلطان والعلم يمكن أن يكونوا كذلك. " (121)

ويقول :

" لقد عَلمّتْ أخلاقُ عصر التنوير الإنسانَ أنه يستطيع أن يثق بعقله مرشداً فى سَنِّ المعايير الأخلاقية، وأنه يستطيع الاعتماد على نفسه فى معرفة الخير والشر

دون الحاجة لسلطة الوحى أو سلطة الكنيسة. "
(122)

ويقول :

"فرويد ومدرسته، برغم أنهما أسهما إسهاماً لا يُقدّر بثمن فى تقدم الفكر الأخلاقى؛ بفضح الزيف فى أحكام القيمة غير المعقولة، إلا أنهما اتخذا موقفاً نسبوياً فيما يتعلق بالقِيَم. موقفاً كان له تأثيرٌ سلبى لا على تطور فلسفة الأخلاق فحسب، بل على تطور علم النفس ذاته." (123)

ويقول:

"يبدو أن المحلل الذى هو فى موقع ملاحظة قوة المجاهَدات غير العقلية وعنادها، أن يصاب برؤية تشاؤمية عن قدرة الإنسان على تحرير ذاته." (124)

ويقول :

" غير أن الظاهرة المضادة، أعنى قوة المجاهَدات من أجل الصحة والسعادة، هى أيضا جزءٌ من الهبة الطبيعية للإنسان. " (125)

ويقول :

"علم النفس الذى كشف البرهان على أن الأحكام القِيَميّة والمعايير الأخلاقية هى تعبيرات معقلنة عن الرغبات والمخاوف غير العقلية، لم يتجاوز هذا الكشف وتجمَّد عند مرحلة النقد." (126)

ويقول:

"خَلقَ الشك المتزايد فى استقلال العقل حالة من التشوش الذى أدى إلى قبول الموقف النسبوى الذى يرى أن أحكام القيم والمعايير الأخلاقية هى أمور تفضيل تحكمى. ولكن بما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون معايير، فقد أصبح معرضاً مرة أخرى إلى أن يصبح فريسة لأنظمة القيم غير العقلية. فيعود إلى الموقف الذى كان التنوير اليونانى وتنوير القرن الثامن عشر قد تغلبا عليه." (127)

يقول إريك فروم:

" افترضَ المفكرون التسلطيون وجود طبيعة إنسانية غير قابلة للتغيير. وأفاد هذا المفهوم فى إثبات أن أنظمتهم الأخلاقية ومؤسساتهم الاجتماعية هى بالضرورة غير قابلة للتغيير." (128)

ويقول:

"إن التطور البشرى مترسّخ فى قابلية الإنسان للتكيّف، وفى بعض الصفات غير القابلة للإتلاف فى طبيعته، التى تدعوه إلى عدم التوقف فى بحثه عن الأوضاع التى تتكيف تكيفاً أفضل مع حاجاته الجوهرية." (129)

ويقول:

"الإنسان قد يتكيّف مع الشروط غير المرضية. ولكنه فى عملية التكيف هذه يُظهر ردود أفعال عقلية وانفعالية محددة تنبع من الخواص النوعية فى طبيعته. الإنسان يستطيع التكيُّف مع أى نموذج ثقافى تقريباً. ولكن بقدر ما تكون هذه النماذج متناقضة مع طبيعته، فإنه يكشف عن اضطرابات عقلية وانفعالية تجبره فى آخر الأمر على تغيير هذه الأوضاع، مادام لا يستطيع أن يغيّر من طبيعته." (130)

ويقول :

"لا يمكن أن يتقدم علم النفس إلا بالعودة للتراث العظيم لفلسفة الأخلاق الإنسانية التى ترى أن غاية

الإنسان هى أن يكون ذاته. إن مصادر المعايير الأخلاقية موجودة فى طبيعة الإنسان. وإن انتهاكها يؤدى إلى التحطم العقلى والانفعالى. إن الطبع الإنتاجى هو مصدر الفضيلة. وإن إفساد المرء لذاته هو مصدر الرذيلة. " (131)

ويقول:

"فى فلسفة الأخلاق التسلطية تنص سلطة ما على ما هو خير للإنسان وتضع القوانين ومعايير السلوك. وفى فلسفة الأخلاق الإنسانية يكون الإنسان نفسه هو مانح المعيار وموضوع المعيار على السواء." (132)

ويقول:

"فلسفة الأخلاق الإنسانية تتركز حول الإنسان. بمعنى أن أحكامه القيمية ككل أحكامه الأخرى وحتى إدراكاته مترسخة فى خواص وجوده، وليس لها معنى إلا بالإشارة إليه. وأن الإنسان هو فعلاً مقياسُ كل الأشياء. " (133)

ويقول:

"فلسفة الأخلاق الإنسانية تقوم على أساس أن الإنسان

وحده هو الذى يمكن أن يكون مقياس الفضيلة أو الإثم. فالخير هو ما هو خير للإنسان. والشر هو ما يضر بالإنسان. والمقياس الوحيد للقيمة الأخلاقية هو حسن حال الإنسان. " (134)

ويقول :

" موضوع البحث فى الفلسفة الأخلاقية هو الطبع. ولا يمكن إلا بالرجوع إلى بنية الطبع فى كُليّتها، وضع أحكام قيمة حول السمات أو الأعمال المنفردة. " (135)

الباب الثالث

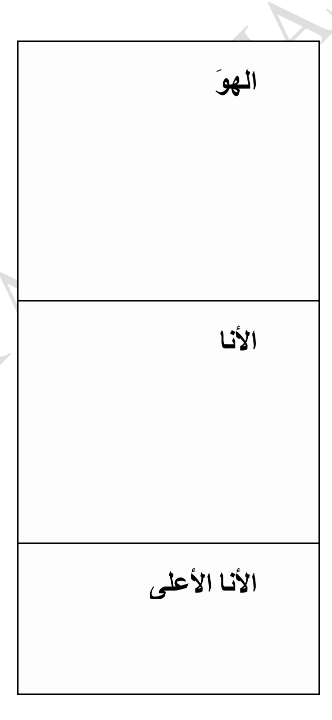
استنتاجات

إريك فروم أكمل العمل الذى بدأه فرويد، وأصلح العوار فى نظرية التحليل النفسى، وحل معظم الألغاز التى كان يبدوا أن من المستحيل حلها. وقد آن الأوان للعقل أن ينطلق من حيث انتهى إريك فروم، ويضع استنتاجات معقولة قد يكون لها تطبيقات هامة تساهم فى صناعة مستقبل أفضل.

الفصل الأول : إعادة تصور الجهاز النفسى

أ – تصور فرويد قبل ضم العدوانية والطبع

(شكل 1) يبين الجهاز النفسى التقليدى كما تصوره فرويد. ويعتمد على فكرة الصراع بين الهوَ الحيوانى والأنا العاقل، فى حين يقوم الأنا الأعلى بعملية الرقابة على الطرفين.



(شكل 1)

ب- تصور فرويد بعد ضم العدوانية والطبع

(شكل 2) هو تصّور تخيّلى لجهاز فرويد النفسى بعد ضم العدوانية والطبع. وفيه يدور صراع فرعى داخل الهوَ بين غريزة الحياة وغريزة الموت بالإضافة إلى الصراع الرئيسى بين الهو والأنا، بينما يقوم الأنا الأعلى والطبع بأعمال استشارية.

الهو (غرائز حياة)	الهو (غرائز موت)
الأنا	
الأنا الأعلى	
الطبع	

(شكل 2)

ج – تصور إريك فروم

لم يهتم إريك فروم كما فعل فرويد بوضع تصّور للجهاز النفسى. ورغم ذلك، ومن كتاباته، أستطيع أن أزعم أن تصّور إريك فروم للجهاز النفسى هو كما فى (شكل 3). إن الوجه الإنتاجى من الجهاز النفسى يمثل الإتجاه الرئيسى الداعم للحياة. ويشتمل على غرائز الحياة، والعقل الموضوعى المستقل، والضمير الإنسانى، والطبع الإنتاجى. والوجه العدوانى من الجهاز النفسى يمثل الاتجاه الثانوى الداعم للموت. ويشتمل على غرائز الموت، والعقل التبريرى، والضمير التسلطى، والطبع العدوانى. ويظهر الاتجاه الثانى إلى الوجود فى حالة غياب الشروط المحققة للاتجاه الأول. فتتحول الطاقة الداعمة للحياة إلى طاقة داعمة للموت.

الوجه الانتاجى	الوجه العدوانى
الهوَ الداعم للحياة (غرائز حياة)	الهوَ الداعم للموت (غرائز موت)
الأنا المستقل (أفكار موضوعية)	الأنا المبرر (أفكار تبريرية)
الأنا الأعلى الإنسانى (أخلاق إنسانية)	الأنا الأعلى التسلطى (أخلاق تسلطية)
الطبع الإنتاجى (عواطف إنتاجية)	الطبع العدوانى (عواطف عدوانية)

(شكل 3)

يبدوا أننا إذن أمام تصوُرٍ جديد للطاقة التى تحرك السلوك. هذه الطاقة إذا ظهرتْ فى الأنا سميت الفكرة، وإذا ظهرت فى الطبع سميت العاطفة، وإذا ظهرت فى الضمير سميت التقييم أو الحكم، وإذا ظهرت فى الهو سميت الغريزة. وهم جميعاً تجليات لشىء واحد. وإن عدم تفريغ الطاقة فى النشاط الإنتاجى ككل يؤدى إلى إعادة تفريغها فى النشاط العدوانى.

الفكرة لابد لها من محتوى عاطفى، ولابد لها من تقييم (صواب أو خطأ أو مُعلّقة أو تؤجّل أو غير واضحة). والشعور كذلك لابد له من فكرة تحتويه، ومن حكم يشمله. والحكم لابد له من فكرة ومن عاطفة. والجميع لا يبتعدون كثيراً عن الدوافع الغريزية.

إن سلوك الإنسان هو خلاصة تفاعل شخصيته الكلية مع العالم. وإن الصراع الرئيسى داخل الإنسان هو صراع الخير ضد الشر؛ أى صراع الوجه الإنتاجى من الجهاز النفسى ضد الوجه العدوانى. إنه صراع غرائز الحياة، والعقل

الموضوعى المستقل والضمير الإنسانى، والطبع الإنتاجى مجتمعين ضد غرائز الموت، والعقل التبريرى، والضمير التسلطى، والطبع العدوانى مجتمعين. إن التداخل بين الوجهين هو أساس كل اللبس التاريخى إلى يومنا هذا. وهو تداخل حتمى ينبع من ماهية الإنسان. إن الوجه العدوانى هو ظل للوجه الإنتاجى، أو أنه صورته فى المرآة. ولكنها صورة لا تظهر إلا عند حلول الظلام.

إن سلوك الإنسان ينتمى إلى عالمين مختلفين، أحدهما حقيقى منضبط موضوعى، والآخر وهمى فوضوى لاعقلانى. وهذا هو السبب فى أن الإنسان لم يفهم نفسه حتى الآن. إن اختلاط العالمين معاً هو سبب كل الارتباك. إنه فى الواقع عبارة عن حل وسط يستخدم بعض الجنون لكى يحمي الإنسان من الجنون.

إن كلَّ المشكلات التى واجهتْ الإنسان فى كل زمان ومكان تبدأ من حقيقة أنه لم يتعلم بعد كيف يستخدم عالمه الحقيقى المنضبط الموضوعى، وتركَ عالمه الوهمى الفوضوى

اللاعقلانى يقودُه. بذلك يكون جهازُه النفسى هشاً ضعيفاً سهل الاختراق. ولكن الإنسان لديه من القدرات التى لم يستخدمها بعد ما يمِّكنُه من تخطى تلك العقبة. وهو الأمر الذى عبرتْ عنه كل الرسالاتِ الإنسانية والفلسفاتِ والأديان بطرقٍ مختلفةٍ قبل أن يتم اختراقُها هى الأخرى.

إن كل السلوك اللامعقول ينتمى إلى الوجه العدوانى الذى يعمل فى الظلام. وإن الدفاعات النفسية يجب إعادة تعريفها بأنها أسلوبُ الوجه العدوانى من الشخصية فى إدارة الأمور. لأن الوجه العدوانى يسعى فى النهاية إلى الموت، سواء كان ذلك موت حياةً أو موتَ فكرةٍ؛ أو موتَ عاطفةٍ أو موتَ سلوكٍ. وهذا أمرٌ خطيرٌ لأن الذى يموتُ لا يعودُ إلى الحياة.

إن النظرة الشاملة للإنسان التى يقدمها إريك فروم ترى أن العلاج النفسى الفعَّال يقومُ على تنمية الوجه الإنتاجى من الشخصية لكلٍّ من الفردِ والمجتمع، من أجل الوصول إلى توازنٍ حقيقى مبنى على انتصارٍ واقعى. ويتمثلُ ذلك

فى تفريغ الطاقة باستمرار فى نشاطٍ بنَّاءٍ يقوم على الحب والعقلانية والعمل واعتناق قيم إنسانية نبيلة خالية من أىِّ شبهة تبرير.

ولكن العودة مرة أخرى إلى تفاصيل الجهاز النفسى على الطريقة الفرويدية يضع أمامنا خياراتٍ جديدةً للعلاج النفسى. فالمحلل يستطيع فى وقت قصير أن يعرفَ نقاط القوة فى شخصية المريض، ويستخدمها فى السيطرة على نقاط الضعف فى شخصيته. ومن الممكن استخدام العلاج بالحب إذا كانت العاطفة هى العنصر السليم فى الشخصية. واستخدام العلاج بالفكر إذا كان العقل هو العنصر السليم فى الشخصية. واستخدم العلاج بالقيم إذا كان الضمير هو العنصر السليم فى الشخصية.

ولهذا فإن الأمثال الشعبية: (حكمّ عقلك) أو (حكمّ قلبك) أو (حكمّ ضميرك) هى بالتأكيد صادقة. ولكن لا تحكمّهم جميعاً فى وقتٍ واحد ما دام هناك خلل فى مكان ما. إبحث عن العنصر السليم فى الجهاز النفسى

واستخدمه في إعادة بناء الشخصية من جديد.

الفصل الثانى : اكتشاف ميكانيزم الخلط

"ميكانيزم الخلط هو حيلة لا شعورية من بين دفاعات الأنا المبرِّرة تختلط بمقتضاها المشاعرُ والأفكار والقيم العدوانية بالمشاعر والأفكار والقيم الموضوعية. فالبضاعة الرخيصة تجىء مرتبطة بالبضاعة الجيدة داخل باقة واحدة، بحيث يتعين عليك أن تقبل الاثنين معاً أو ترفضهما معاً. وبذلك تتجنب كل المعاناة التى كان من الممكن أن تتعرض لها إذا ما واجهتَ نواياك العدوانية بصدق."

هذا الميكانيزم ـ على حد علمى ـ لم يلتفت إليه أحد من قبل. وهو يعود أصلاً إلى الصراع الرئيسى داخل الإنسان؛ صراع الخير ضد الشر، أو صراع الوجه الإنتاجى من الجهاز النفسى ضد الوجه العدوانى، أو صراع غرائز الحياة والعقل الموضوعى والضمير الإنسانى والطبع الإنتاجى مجتمعين ضد غرائز الموت والعقل التبريرى والضمير التسلطى والطبع العدوانى مجتمعين. إن

التداخل بين الوجهين هو أساس كل اللبس، وهو تداخل حتمى ينبع من ماهية الإنسان.

وتظهر أهمية الخلط بوضوح فى الأنا الأعلى التسلطى، حيث تتجمع فيه باقة الأخلاق التسلطية التى تعلمها الفرد وارتبط بها. هذه الباقة هى عبارة عن أخلاق إنسانية أصيلة، اختلطتْ بها محصلةُ الثقافة المتاحة من أفكار سحرية وعدوانية وتسلطية، وتبناها العقل المبرِّر بهدف التماثل مع القطيع والفوز برعاية السلطة والوقاية من غضبها.

إن الأخلاق أصلاً إنسانية، خرجتْ من العقل المستقل ثم أضاف إليها العقل المبرِّر إنتاجَه من الأفكار السحرية والتسلطية، وربطهما ببعض ربطاً جيداً بفعل ميكانيزم الخلط. وبعد ذلك قام بتحصين الباقة الناتجة بختم السلطة ليحمى ما بها من عوار. ولما جاء النسبويون خلعوا عنها هذه الحصانة، ولكنهم لم يحاولوا إعادتها إلى سيرتها الأولى، لأن الخلط أصبح راسخَ الجذور فى التوازن النفسى للفرد والمجتمع.

والأخلاق الإنسانية يُبدعها الأحرار ثم يسلمونها للمجتمع الذى يُعَدِّلها ويضيف إليها ما يناسب الثقافة الدارجة من أفكار عدوانية وسحرية حسب ميكانيزم الخلط، ويحوِّلها إلى أخلاق تسلطية. وهو ما يُرضي الحكام والمحكومين على حد سواء حسب فكرة التسلط و الخضوع المنسوبة للعواطف الراسخة فى الطبع.

ولهذا فإن الأخلاق التسلطية هى فى الأصل أخلاق إنسانية فقدت أصالتها عند التطبيق بين العامة، بحجة أن طبيعة الإنسان الشريرة لن تستجيب لها إلا إذا قُدِّمتْ على أساس أنها أفكار مطلقة طاعتها واجبة، وعصيانها يؤدى إلى العقاب من السلطة الدينية أو الدنيوية.

والأخلاق النسبوية هى نفس الأخلاق. لاحظ المثقفون ما اختلط بها من أفكار سحرية وعدوانية، وحاولوا التوصل إلى أفضل الحلول التوافقية التى لا تخل بتوازن الفرد والمجتمع. فعزلوها فى زنزانة منفردة داخل كل مجتمع على

حدة، وأشبعوها نقداً دون أن يملكوا رفاهية تغييرها.

ولكن النسخة الأصلية من الأخلاق الإنسانية كانت موجودة طوال الوقت هناك فى الوجه الإنتاجى من الجهاز النفسى. وبالتحديد داخل الأنا الأعلى الإنسانى. إنها القيم والمبادئ والمعتقدات والأخلاق التى تعتمد على العواطف الإنتاجية والعقل الموضوعى. هذه المعايير محفوظة بعناية ومفلترة تماماً من شبهة أيّة عدوانية أو فشل أو إحباط أو سحر أو تسلط أو تعصب أو تمييز أو أنانية، ولاتحتاج إلى شرح أو تفسير أو خلط أو تبرير، ومشتركة فى كل الثقافات.

إن الذين يدافعون عن قناعاتهم المطلقة يعددون بسهولة عناصرَها البناءة للتدليل على صحة دعواهم. وعندما يُفاجأون بكم العناصر العدوانية الموجودة لديهم بفعل ميكانيزم الخلط،، فإنهم يضطرون لاستخدام ميكانيزم التبرير من أجل التخلص من الموقف الذى ما

كانوا يتصورون أنهم سوف يواجهونه يوم تبنوا تلك الأفكار. فهم لا يستطيعون التراجع بعد أن أخذوا الباقة المختلطة.

الفصل الثالث : رصد ظاهرة التطفل

ظاهرة التطفل تنتشر فى كل مجتمع، وإن كان من الصعب رصدها. إنها تختلف تماماً عن ظاهرة الفساد أو ظاهرة النفاق. إنها عبارة عن رد فعل تلقائى على نقاط الضعف الموجودة فى طبيعة الإنسان والتى تجعل من الصعب عليه أن يُفرِّق بين القيم الإنسانية والقيم العدوانية.

"التطفل هو قدرة البعض على تحقيق مكاسب عن طريق استثمار نقاط الضعف لدى الآخرين."

والأمثلة على ذلك كثيرة. فالتطفل هو الذى حَوَّلَ الحب إلى سيطرة، والكينونة إلى تملك، والتديُّنْ إلى إرهاب، والتظاهر إلى عنف، والحرية إلى انحلال، والاشتراكية إلى تأميم، والديمقراطية إلى تزوير، والرأسمالية إلى توَحُّشْ، والتحَضُّرْ إلى استعمار، والإدارة إلى فساد، والاقتصاد إلى ربا، والدعاية إلى احتيال. التطفل هو الذى جعل البنوك تفتعل الأزمة المالية، والثقافة تشعل صدام الحضارات، والربيع العربى

يؤدى إلى خريف عربى.

التطفل أيضا ًيختلف عن الظاهرة السادية الماسوشية التى حللها فرويد، أو ظاهرة التسلط والخضوع التى ناقشها إريك فروم. فالعلاقة هنا لا تكون علاقة بين طرفين يتبادلان استغلال نقاط الضعف. ولكنها تكون بين طرفٍ واضح ومستباح وطرفٍ آخر مجهولٍ لا يشعر أحدٌ بوجوده رغم قوة تأثيره.

وكنت قد ابتكرت مصطلح (الشخصية الطفيلية) وقدَّمتُ فيه دراسة منذ سنوات فى كتابى الأول (التوازن الزائف – رقم الإيداع : 4894/ 2009) أنقل منه هذه العبارات ببعض التصرف:

"الشخص الطفيلى عجز عن أن يكون حراً ورفض أن يكون عبداً، فابتكر تلك الطريقة العجيبة للعيش. إنه يربط وجوده بوجودك حتى لا يمكن التخلص منه دون خسارة فادحة. كما أنه حساس جداً لنقاط ضعفك ومواطن قوّتك،

يمتلك مرونة عالية وقدرة كبيرة على التكيّف."

"عندما تضعف القوى المسؤلة عن توازن المجتمع، تنشط الشخصيات الطفيلية وتتسلل مرتدية زى الرفيق الحريص على مصالحك أو الخبير العالم بأحوالك. إنه يعرف طريقه جيداً ويتدخل فى كل الأمور. يستنزف مصادرك لكى يحصل على الدعم اللازم لبقائه. أهدافه تتغذى على أهدافك وتعثره يختفى داخل تعثرك وإرادته تقوم على سلب إرادتك. لا تتعجب عندما تراه قد صار صديقك المفضل أو شريك حياتك. "

" سيراقب تعثرك ويلمس نقاط ضعفك ومواطن قوتك. سيعرف متى يستخرج غضبك؟ ومتى يستجدى رضاك؟ سيعطيك ما تحتاجه فى البداية ويحرص على أن تظل مديناً له بلا نهاية، ثم يظل يعدد تضحياته وأفضاله عليك بلا ملل. سيدّعى أنه يساعدك بلا مقابل رغم أن طموحاته بلا حدود. يجب أن تجوع لكى يشبع

وتثور لكى يهدأ، وترتعد لكى يشعر بالأمان، وتفشل لكى ينجح، وتقترب من الموت لكى يحيا. "

" إنه يستمد وجوده منك، ورغم ذلك يتجاهل كل ما حصل عليه! ويهتم فقط بما قد يتبقًى لديك من مال أو خصوصية أوهدوء نفسى أو راحة ضمير، فهذا يُشعِرُه بالخطر ويدفعه للجنون. لهذا تجدُه يحاول سلبَ إرادتك ومصادرة أملاكك. فإن فشل فى ذلك، حاول التسلل إلى ضميرك لينقل له كل ذنوبه وخطاياه. "

" وعلى المستوى الاجتماعى، تبرز أهمّية التطفل فى انتشار الخبراء الزائفين داخل المجتمع. والخبراء الزائفون شخصيات طفيلية تتشكل فى كل مجتمع وتنظم نفسها جيداً وتشق طريقها نحو القمة. إنها تؤثر بقوة فى حياتنا وتستنزفنا لكى تحصل على الدعم اللازم لبقائها. "

"لكى يتقدم أى مجتمع يجب أن يكون غنياً

بفريق من الخبراء الحقيقيين الذين يعملون بإخلاص لدعم الاقتصاد والدين والعلم والقانون فى البلاد. ولكى يسقط نفس المجتمع يجب أن يكون مبتلياً بفريقٍ من الخبراء الزائفين الذين يستغلون إنتاج الفريق الأول. فالمجتمع الصالح يصنع خبراءً حقيقيين. والخبراء الحقيقيون يصنعون مجتمعاً صالحاً. والمجتمع الفاسد يصنع خبراءَ زائفين. والخبراءُ الزائفون يصنعون مجتمعاً فاسداً."

" الخبير الحقيقى يقود العمالة القوية الصالحة المدربة نحو القمة. والخبير الزائف يقود صغار النفوس والوصوليين ومدعى العلم والمنافقين نحو القمة أيضاً. الخبير الزائف يستطيع أن يصل إلى أعلى المراكز، فهو يستطيع استخدام المال لتحويل الناس إلى أسياد وعبيد. ويستطيع أن يروّج للأكاذيب كما لو كانت حقائق. ويستطيع أن يجعل القانون سيفاً على رقاب الناس، لاوسيلة لنشر العدل وترتيب البيت.

" الخبير الزائف يستطيع أن يفعل الكثير.

ولكنه يعجز عن شئ واحد فقط، يعجز عن أن يكون مبدعاً، فهذا من اختصاص الخبراء الحقيقيين. لهذا فإن الخبير الزائف يكون حساساً بصفة خاصة تجاه الإبداع. تجده فى البداية يحارب الإبداع، ثم تجده يحاول أن يسرق الابداع وينسبه لنفسه. فإن فشل فى ذلك، غير موقفه، وتحول إلى داعم قوى لكل المبدعين الذين نجحوا فى تخطى الحواجز التى وضعها أمامهم. وبذلك يدين له الجميع بالفضل، فيستقر فى ذلك المكان الفريد على قمة المجتمع. وفى وقت المحن، حينما يتعرض الجميع للخطر والدمار، يبقى هو آمناً فوق القمة."

" إن الإنسان المتعثر الذى يحتاج إلى الدعم يصطدم حتماً بالخبراء الزائفين. فإذا طلب المال وجده فى يد الخبراء الزائفين. وإذا اتجه إلى الدين كان عليه أن يمر من بوابة الخبراء الزائفين. وإذا اتجه إلى العلم وجدهم هناك. وإذا اتجه إلى القانون وجدهم أيضاً هناك. يوجِّهون المجتمع نحو المستقبل الذى يريدونه .

ولايكتفون بتزييف الماضى والحاضر، بل يستعدون أيضاً لتزييف المستقبل."

"الخبير الزائف يشارك المجتمع خبزَه ولا يشاركه أهدافه. إن العلاقة مع الخبراء الزائفين تختلف عن العلاقة مع الشريك أو التابع أو حتى العدو. إنهم يستمدُّون حياتهم منَّا ورغم ذلك يعملون على سلب إرادتنا والتحكم فى أرزاقنا."

"الخبراء الزائفون يتحكمون فى شرايين الحياة. يسيطرون أولاً على الأغلبية الغافلة ثم ينتقلون إلى التعامل مع النخبة المثقفة. يتسللون إلى ضمير المجتمع ويؤكدون له أن الجميع مدينون لهم، والحياة مستحيلة بدونهم، والتخلص

منهم هو درب من الخيال. إنهم يلتصقون بكل أمورنا المالية والدينية والعلمية والقانونية. أهدافهم تتغذى على أهدافنا، وإرادتهم تقوم على سلب إرادتنا، وضمائرهم لا تصفوا إلا إذا نقلوا إلينا خطاياهم."

يعتمد التطفل أصلاً على ميكانيزم الخلط

الذى اكتشفنا وجوده فى هذه الدراسة. ويصل التطفل إلى ذروة خطورته عندما يستخدم الخبراء الزائفون مهاراتهم فى التبرير؛ من أجل إعادة صياغة المبادئ والقيم والأخلاق بما يتفق مع مصالحهم. وبالتالى يعاد توجيه السياسات والأيديولوجيات وحتى الأديان لخدمة التطفل. لأن هذه هى المفاتيح التى تقود الأفراد والمجتمعات على السواء.

وما دام لا يوجد وعىّ أو مقاومة فإن كل شىء يصبح قابلاً للاختراق، بما فى ذلك أكثر المذاهب مرونة واعتدالاً، وكذلك أكثرها انغلاقاً وتحفظاً. المذاهب المرنة يمكن اختراقها بتعديلها وتطويرها بما يخدم التطفل. والمذاهب المغلقة يمكن اختراقها بتزوير نصوصها أو إعادة تأويلها وتبريرها بما يخدم نفس الأهداف.

وما دام هناك خلط وتبرير داخل المبادئ والمعتقدات والأخلاق فلنا أن نتوقع أن تكون حافلة بالعدوانية والتسلط والتعصب والأنانية

والتمييز والتفكير السحرى، وتحتاج إلى مجهود ضخم من أجل الشرح والتبرير والتأويل، يقوم به مشكورون السادة الخبراء الزائفون.

وهكذا فإن البضاعة الرخيصة تأتى مختلطة بالبضاعة الثمينة داخل باقة واحدة. هذا الخلط لم يبتكره الخبراء الزائفون، وإن كانوا قد أجادوا استخدامه. إنه يعود أصلاً إلى الخلط الأساسى داخل الجهاز النفسى بين العقل الموضوعى والعقل المبرِّر. ذلك الخلط الذى تسبب فيه ضعف توازننا النفسى وعدم إيماننا الكافى بقدرة عقلنا الموضوعى على الفرز واستخراج العسل من داخل السم.

إنَّ الشخص الطفيلى يربط مصالحه الأنانية بمصالحك، ومبادئه العدوانية بمبادئك. ومن هنا يستطيع الدخول إلى الوجه العدوانى من جهازك النفسى، والتحكم فى غرائزك وعواطفك وضميرك وأفكارك، حتى يصبح توازنك النفسى كله تحت رحمته.

إذا كنت تعتبر نفسك من أصحاب العقول المتفتحة، فإن القيم العدوانية سوف تأتيك من الخارج مرتبطة بمبادىء الحرية والديمقراطية. وإذا كنت من أصحاب العقول المغلقة، فإن القيم العدوانية قد سبقتك إلى الداخل مرتبطة بأفكارك التسلطية وعقائدك السحرية. ومادمتَ لم تتعلم كيف تستخدم عقلك الموضوعى وتركتَ القيادة لعقلك المبرِّر، فثق أنك فى هذه الحالة ضعيفٌ جداً، وجهازك النفسى كله معرض للاختراق، وهو ما يقوم به الطفيليون بكل سهولة. هذا يذكرنى بالمثل الشعبى القائل : (إمشى عدّلْ، يحتار عدوك فيك).

الخبراء الزائفون يحاولون دائماً احتلال قمة الهرم. ومن يجلس فى هذا المكان، يمسك بيديه مفاتيح المبادىء والقيم والأخلاق والمعتقدات، ويستطيع التحكم فى كل شئ، من قمة الهرم حتى قاعدته. إنه هو الذى يُعِدُّ القوانين ويرسم السياسات ويبنى الأحلاف ويحدد

الأولويات ويُشعل الحروب. كل هذا لأنه المتطفل الأكبر، والمبرِّر الأكبر، والأنانى الأكبر، وقد عرف كيف يوظف جيشاً من المبرِّرين الأنانيين المتطفلين الصغار، أشبه بجيش دراكولا الذى يُجند كل يوم أعضاء جدد باستخدام القبلة الملعونة.

ولما كان الصراع داخل المجتمع لابد له من خلفية نظرية، أى قانونية وفكرية وعقائدية يتحكم فيها غالباً الخبراء الزائفون، فإنه يتحول إلى صراع خبراء زائفين ضد خبراء زائفين. ولكنهم يوحدون صفوفهم فى النهاية من أجل اقتسام الكعكة واستنزاف موارد البلاد.

إن الانتباه لموضوع التطفل يمكن أن يُسهم فى فهم الكثير من القضايا التى كانت تبدو غامضة إلى وقت قريب، خاصة إذا فهمنا الآليات المستخدَمة فى هذا الغرض وعلى رأسها ميكانيزم الخلط.

وإذا كان التطفل يستطيع اختراق الأخلاق

سواء كانت نسبوية أو تسلطية باستخدام التحليل النفسى، فإنه أيضاً يستطيع اختراق العادات السلوكية باستخدام النظرية السلوكية الحديثة.

وقد تم تطبيق السلوكية على نطاق واسع فى كل أنحاء العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين. وتم تطبيق قوانين التعلُّم ومبادئ الاشتراط من أجل خلق مجتمع مثالي. ولكن الواقع هو أنه قد تم خلق مجتمع مثالى لأصحاب المال ورجال الأعمال بعيداً عن آمال الشخص العادى البسيط الذى زُرعتْ فيه عاداتٌ استهلاكية، وحكم عليه أن يظل مديناً مدى الحياة، وحُرم حتى من معرفة طبيعة السلطة التى تحكمه. ولم يعد العمل نشاطاً إنسانياً له معنى، بل مجرد وسيلةٍ للحصول على المال. والتعبير عن الرأى فقد معناه، بعد أن تحول البشر إلى كائنات مغتربة تتلاعب بآرائهم آلاتُ الاشتراط الكبيرة ووسائل الدعاية والإعلان. وانكمش دور الأخلاق ليحل محله قواعد

الاتفاق، فكل طرف يحترم طواعية شروط الاتفاق، انتظاراً لتلقى التعزيز المتفق عليه.

ولكن الفرد الذى ينضبط ويتكيف مع سلوك ضد طبيعته نتيجة تعرُّضه دون علمه لقانون التعزيز، لابد وأن تصدر منه فى النهاية ردود أفعال مضطربة تعبر عن الاغتراب، وتدل على أن شيئاً ما خطأ يحدث، وتدفعه فى النهاية إمّا إلى تغيير الأوضاع أو إلى الجنون.

يقول إريك فروم:

"فى منتصف القرن العشرين بدّلت السلطة صفتها المميزة. فهى ليست سلطة معلومة، بل سلطة مجهولة غير مرئية اغترابية. فلا مطالَبة من أحد، من شخص، ولا من فكرة أو قانون أخلاقى. ومع ذلك فنحنً فى المجتمع المتقدم نمتثل كما هى عادة الناس فى أىّ مجتمع تسلطى. فماذا تكون السلطة المجهولة؟ الربح، الاقتصاد، السوق، الرأى العام. إن قوانين السلطة المجهولة غير مرئية كقوانين السوق. وهى مثلها لا يمكن أن تُهاجَمْ. فمن يستطيع أن يهاجم غير المرئى؟

ومن فى وسعه أن يتمرد على لا أحد؟ " (135ب)

الباب الرابع
الجيل الثالث من الحضارة
عصر الحكمة

الجيلُ الثالث من الحضارة قادمٌ لا محالة.

والإنسان أوشك على أن يحل لغز الإنسان. والحضارة سوف تُصحّح اتجاهها وتُعدّل دفتها وتتقدّم إلى الأمام. وكل ما نراه على سطح هذا الكوكب من اضطراباتٍ، هو محاولات من القلة المستفيدة من الوضع الحالى من أجل توجيهنا بعيداً عن الاتجاه الذى يجب أن نذهب إليه، بغرض إيقاف الزمن أو العودة به إلى الوراء.

يقول إريك فروم :

"إننا لسنا على الطريق المفضى إلى المشروع الحر، بل إننا نتحرك بسرعة مبتعدين عنه. إننا لسنا على الطريق المفضى إلى الاستقلالية، بل إن حضارة هائلة إنما تستغلنا. إننا لسنا على الطريق إلى الأماكن التى تخبرنا خرائطنا الأيديولوجية أننا متجهون إليها. إننا ننساق فى اتجاه مختلف تماماً. وإن البعض يرون ذلك الاتجاه بوضوح شديد. ومنهم أولئك الذين يفضلونه، ومنهم أولئك الذين يخشَوْنه. ولكن معظمنا يتطلع إلى خرائط مختلفة عن الواقع. ولا يكفى أن نعرف

أن خرائطنا زائفة، فمن المهم أن يكون لدينا خرائط صحيحة لكى نتجه الاتجاه الذى نود الوصول إليه." (136)

ويقول:

"إن النبؤات بالهلاك المحتوم تُسمَع اليوم بتكرارٍ متزايد. ومع أن لها الوظيفة المهمة فى جذب الانتباه إلى الإمكانات الخطرة فى وضعنا الحالى، فإنها تخفق فى أن تأخذ فى الحسبان الوعد الذى يتضمنُه إنجازُ الإنسان فى العلوم الطبيعية، وفى علم النفس، وفى الطب، وفى الفن. وهذه المنجزات تصوِّر فعلاً وجود قوى إنتاجية قوية لا تتلاءم مع صورة ثقافة تنحط. إن عصرنا هو عصر انتقال. والعصور الوسطى لم تنتهِ فى القرن الخامس عشر. والعهد الحديث لم يبدأ بعد ذلك مباشرة. وتتضمن النهاية والبداية سيرورة دامت أكثر من أربعمائة سنة. وهو زمنٌ قصيرٌ فعلاً إذا قسناه على أساس تاريخى وليس على أساس فسحة العمر . (137)

ولكن لا شىء يستطيع أن يمنع الأرض من

الدوران. والزمن يتحرك فى اتجاه واحد ولا يعود إلى الخلف.

العالم سوف ينتقل حتماً إلى الجيل الثالث من الحضارة (عصر الحكمة). وسوف يقترن ذلك بانتقال الإنسان إلى اعتناق الأخلاق الإنسانية التى كانت موجودة دائماً داخل الوجه الإنتاجى من الجهاز النفسى.

تقوم هذه الأخلاق على الحب والحرية والعمل والتعاون والإنتاج والعلم والعدل والحق والأمل والإرادة والعزيمة والإبداع، وتعتبر أن الإنسان وحده هو الذى يمكن أن يكون مقياس الفضيلة أو الإثم. فالخير هو ما ينفع الإنسان. والشر هو ما يضر بالإنسان. ولا حاجة لاستعمال المعايير السلطوية أو النسبوية.

لقد بدأت الأخلاق إنسانية عند الفلاسفة والأنبياء والمصلحين. ثم تحولت إلى أخلاق تسلطية عندما أضاف إليها الجيل الأول من الحضارة غير الناضج (عصر التسلط) عناصره

العدوانية والسحرية والتسلطية. ثم تجَمَّدت تحت اسم الأخلاق النسبية فى الجيل الثانى من الحضارة قليل النضج (عصر الرشد). ثم حان الوقت أن تعود إلى سيرتها الأصلية. فالإنسان فى الجيل الثالث من الحضارة (عصر الحكمة) سوف يبلغ مرحلة النضج الكامل.

إن أفكار إريك فروم تعتبر إسهاماً لا يقدَّر بثمن فى هذا المجال. فقد أمكنها بالفعل أن تعالج الثغرات فى نظرية التحليل النفسى، وذلك بتغيير فكرة الصراع النفسى من أساسها. كما أنها اكتشفتْ آليّاتٍ أكثر عمقاً عن كيفية عمل الجهاز النفسى. وغيرت من مفهوم الصحة الذهنية. وأعادت اكتشاف فلسفة الأخلاق الإنسانية. وهى الأهداف التى كان يسعى إليها فلاسفة عصر التنوير بما فيهم فرويد نفسه، بل وكل المصلحون العظام على مر التاريخ.

كما أن الأفكار المطروحة هنا، من إعادة تصور الجهاز النفسى، واكتشاف ميكانيزم الخلط، ورصد ظاهرة التطفل، سيكون لها دور

إيجابى فى هذا المجال. وإلا تمَّكن التطفل من اختراق فلسفة الأخلاق الإنسانية، بنفس السهولة التى اخترق بها السلطوية والنسبوية.

مع اقتراب الجيل الثالث من الحضارة بدأ يظهر نموذج إرشادى جديد فى العلم. هذا النموذج يخلع ثوب الحيادية، ويعتمد على الحكمة لا على الحيلة، ويتعاون مع الطبيعة دون أن يحاول السيطرة عليها، ويتحول من رؤية الكينونات المنفصلة إلى دراسة شبكة العلاقات الكلية، ويعمل من أجل خير الإنسان. وكان العلم فى الجيل الثانى من الحضارة يلبس ثوب الحيادية، ويختزل الكل إلى مجموعة من الأجزاء الميكانيكية، ويقدم خدماته من أجل البناء ومن أجل التدمير على حد سواء.

فى الجيل الثالث من الحضارة، سيختفى مفهوم العدوّ التقليدي الذى يختلف معك فى الجنس أو الدين أو المذهب أو الطائفة. وسوف يتحدّ البشر جميعاً ضد نقاط ضعفهم التي كانت تترك الباب مفتوحاً لقوى التطفل كي تخترق قلوبهم

وتتسلق على أكتافهم.

فى الجيل الثالث من الحضارة سوف يتغير مفهوم الصحة النفسية، من تكيف الفرد مع حاجات المجتمع، إلى تكيف المجتمع مع حاجات الفرد، وذلك بمساعدته على تحقيق ذاته واكتشاف قدراته بالعمل والإنتاجية والحب والحرية. وسوف تظهر مفاهيم جديدة للعلاج النفسى كالعلاج بالحب، والعلاج بالفكر، والعلاج بالقيم.

وفى الجيل الثالث من الحضارة لن يكون الجهاز النفسى للإنسان هشاً ضعيفاً سهل الاختراق. لأن الإنسان سوف يتعلم كيف يستخدم عالمه الحقيقى المنضبط الموضوعى، ولن يستسلم مرة أخرى لعالمه الوهمى الفوضوى اللاعقلانى. وسيقوم الإنسان بتفعيل غرائز الحياة والعقل المستقل والضمير الإنسانى والطبع الإنتاجى، بحيث لا يسمح باستهلاك الطاقة فى غرائز الموت والعقل التبريرى والضمير التسلطى والطبع العدوانى.

وسوف يصل الإنسان فى الجيل الثالث من الحضارة إلى مرحلة النضج الكامل، فيثق فى قدراته، ويحترم إنسانيته، ويتأكد أن الخير أقوى كثيراً مما كان أجداده يعتقدون. وعند ذلك فإنه سوف يتعلم شيئاً جديداً اسمه " ميكانيزم الفرز".

إن حضارة الجيل الثالث سوف تفرز القيم الإنسانية وتستخرجها من بين القيم المختلطة. وسوف تفرز الخبراء الحقيقيين وتعزلهم عن الخبراء الزائفين.

والسر فى ذلك يكمن فى شىء واحد فقط هو ارتفاع مستوى ذكاء البشر. العقل الموضوعى الاكثر ذكاءً سوف يفضح العقل المبرِّر كلما تسلل مستخدماً ميكانيزم الخلط أو التبرير.

يعتقد إريك فروم أن الإنسان كان فى السابق يخشى أن يتحول إلى عبد ، أما فى هذا الزمان فإنه قد أصبح يخشى أن يتحول إلى آلة. وبالفعل فقد جعلتْ الحضارة الحديثة الإنسان يتطابق مع جهاز

الكمبيوتر اللوحى الذى لا يفارقه. ولكن هذه الآلة البشرية الجديدة هى التى سوف تهزم التطفل وتقود العالم إلى عصر الحكمة.

والسبب الذى يجعلنى أؤمن بذلك هو أن الأجيال الجديدة أكثر ذكاءً مما كنا نتصور. إن حفنة من العباقرة قد قادت عملية الانتقال إلى عصر الرشد. واليوم لدينا ألوف من العباقرة الذين لن يكون من الصعب عليهم أن يفرزوا الطيب من الخبيث، وأن يلاحظوا الأساس الواهى الذى كان يقوم عليه توازننا النفسى، وأن يستخرجوا الأخلاق الإنسانية من بين ذلك الكم الهائل من الزيف والتضليل.

هؤلاء الاذكياء سوف يكتشفون أن الذكاء والعلم والثقافة شديدو الارتباط بالحب والحرية والابداع وعمل الخير. وأن الشرّ ضعف وغباء وفشل وإحباط قبل أى شيءٍ آخر. هؤلاء لن يخدعهم ميكانيزم الخلط ولن تفتنهم باقات القيم السامة. هؤلاء سوف يستخرجون العسل من بين السم، ولن ينصتوا إلى أىّ تبرير أو تأويل مضلل

مهما علا صراخه. إنهم يستطيعون عمل المعجزات وحل كل المسائل المستعصية بسهولة لم نكن نحلم بها.

إن كل ما نتمسك به ونحارب من أجله ويعتمد عليه توازننا النفسى الهش سيكون لاشىء بالنسبة لأجيال أكثر ذكاءً. إن نهاية هذه الملهاة أقرب مما نظن. ولن نحتاج إلى سوبرمان ليخلصنا، ففى الطريق أجيال من السوبرمان يستطيعون عمل المعجزات.

لن نكون فى حاجة إلى أن نحمى غباءنا من غباء الآخرين. ولن نخجل من الاعتراف بحماقاتنا. لأن هؤلاء الاذكياء سيدعمون الحياة ولن يقبلوا العمل لصالح الموت مرةً أخرى. لن يقهروا الضعفاء باسم الدين، ولن يستعبدوهم باسم الديمقراطية. سيعطونهم الفرصة لكى يهتدوا إلى القيم الإنسانية ويُفرغوا الطاقة فى الاتجاه الإيجابى الداعم للحياة.

لكن إريك فروم لم يكن يشاركنى نفس

الثقة في ذكاء البشر.

يقول إريك فروم:

"علينا أن نميّز بين الذكاء والعقل. وأقصد بالذكاء، القدرة على الاستخدام البارع للتفاصيل بقصد تحقيق غاية عملية." (138)

ويقول :

"الذكاء فكرٌ في خدمة البقاء. أما العقل فيهدف إلى فهم ما وراء السطح والتعرُّف على الجوهر." (139)

ويقول :

"الإنسان الحديث يُظهر انعداماً للواقعية مثيراً للعجب بالنسبة إلى كل ما يهم من معاني للحياة والموت والسعادة والألم والشعور والفكر الجِدِّيّ." (140)

ويقول :

"الذكاء كاف للاحتيال كما ينبغي على جزء واحد من وحدةٍ أكبر، سواء كانت آلة أم حالة. ولكن العقل لا يمكن أن ينمو إلا إذا تلاءم مع

الكل." (141)

ويقول:

"لدى ملاحظة نوعية التفكير عند الإنسان المغترب، نلاحظ كيف أن ذكاءه قد نما، وكيف أن عقله قد تدهور. " (142)

عموماً، فإن التقدم العلمى قد أدّى إلى حدوث طفرة حادة فى الذكاء فى الثلاثين عاماً الأخيرة بعد وفاة إريك فروم، بحيث يبدوا لى أن الأجيال الجديدة قادرة على استيعاب كل المسائل المعلقة منذ بدء الحضارة، وحل كل ألغازها بسهولة شديدة.

إن أفلام الخيال العلمى قد تنبأت بثورة الآلات، وأنا أتوقع ثورة الآلات البشرية الجديدة. وهى ثورة تهدف إلى الحب والخير والعقل والإنتاج.

إن الصراع الآن هو جزء من الصراع الأزلى بين الخير والشر. إنه صراع بين الوجه الإنتاجى من الجهاز النفسى الذى يتحرك تلقائياً نحو عصر الحكمة، وبين الوجه العدوانى من الجهاز

النفسى الذى يستخدم أفكاراً مشبوهة من أجل إيقاف الزمن والعودة بالحضارة إلى الوراء. إن هذا الصراع يعتمد على نقاط ضعفٍ موجودة فى الطبيعة البشرية نملك اليوم وسائلَ لفهمها جيداً لم تكن متوفرة من قبل.

فهرس الملاحظات

(1) إريك فروم، ثورة الأمل، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 102
(2) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 128
(3) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 75
(4) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 78
(5) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 129
(6) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 130
(7) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 358
(8) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 129
(9) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 352
(10) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 87
(11) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 62
(12) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 353
(13) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 44
(14) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 44
(15) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 43
(16) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 175
(17) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 41
(18) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 410
(19) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 134
(20) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 136
(21) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 142
(22) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 168
(23) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 229
(24) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 231
(25) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى
(26) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 260
(27) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 33
(28) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 34

(29) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 34
(30) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد
(31) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد
(32) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 36
(33) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 11
(34) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 11
(35) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 11
(36) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 408
(37) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 134
(38) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 143
(39) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 98
(40) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 142
(41) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 171
(42) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 232
(43) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 230
(44) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 116
(45) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد
(46) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 122
(47) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 118
(48) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 119
(49) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 119
(50) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 120
(51) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 125
(52) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 127
(53) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 139
(54) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 139
(55) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 126
(56) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 115
(57) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 144
(58) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 146

(59) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 144
(60) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 147
(61) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 144
(62) إريك فروم، التملك والكينونة، ترجمة: محمد سبيلا
(63) إريك فروم، التملك والكينونة، ترجمة: محمد سبيلا
(64) إريك فروم، التملك والكينونة، ترجمة: محمد سبيلا
(65) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 174
(66) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 175
(67) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 175
(68) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 176
(69) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 192
(70) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 177
(71) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 177
(72) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 177
(73) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 178
(74) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 178
(75) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 180
(76) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 190
(77) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 191
(78) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 191
(79) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 192
(80) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 192
(81) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 44
(82) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ج1، ص 57
(83) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 245
(84) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 247
(85) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 247
(86) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 248
(87) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 55
(88) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 55

(89) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 56
(90) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 71
(91) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 57
(92) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، المقدمة، ص 19
(93) إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، المقدمة، ص 19
(94) سيجموند فرويد، الأنا والهو، ترجمة: محمد عثمان نجاتى، ص 25
(95) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 187
(96) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 184
(97) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 184
(98) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 68
(99) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 70
(100) إريك فروم، أزمة التحليل النفسى، ترجمة: طلال عتريسى، ص 17
(101) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 76
(102) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 71
(103) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 71
(104) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 181
(105) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 68
(106) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 79
(107) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 180
(108) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 177
(109) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 177
(110) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 180
(111) إريك فروم، فن الإصغاء، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 54
(112) إريك فروم، فن الإصغاء، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 102
(113) إريك فروم، فن الإصغاء، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 101
(114) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 59
(115) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 59
(116) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 44
(117) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 44
(118) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 45

(119) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 47
(120) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 106
(121) إريك فروم، الدين والتحليل النفسى، ترجمة: فؤاد كامل، ص 107
(122) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 39
(123) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 30
(124) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 32
(125) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 32
(126) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 30
(127) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 39
(128) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 55
(129) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 58
(130) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 57
(131) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 41
(132) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 44
(133) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 48
(134) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 47
(135) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 68
(135ب) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص266
(136) إريك فروم، ثورة الأمل، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 51
(137) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 277
(138) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 285
(139) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 585
(140) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 286
(141) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 287
(142) إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص 287



الكاتب فى سطور

الكاتب هو طارق أحمد حسن، مهندس مصرى ناجح من مواليد الأسكندرية 1957، متزوج وأب لثلاث بنات، كما أنه لاعب شطرنج دولى، وحائز على عدد من البطولات المحلية والدولية.

يؤمن الكاتب بشمولية التجربة الإنسانية، وأن واقع الحياة فى مصر لا يمكن فهمه إلا من خلال فهم الإنتاج الثقافى للإنسان على مستوى العالم عبر المراحل التاريخية المختلفة. من أجل ذلك قرأ المئات من الكتب فى الفلسفة والفكر وعلم النفس والتاريخ وتاريخ الأديان، وزار الكثير من البلدان، ودرس عن قرب عادات الكثير من الشعوب، وكوَّن فى النهاية تجربة خاصة جداً، يحاول التعبير عنها بطريقة يستفيد منها القارىء.

الكاتب يعتبر نفسه باحثاً غير محترف ولا يهدف إلى الربح. وهو متأثر جداً بالفكر الإنسانى للفيلسوف إريك فروم، ويتفق معه فى أن الإنسان يمتلك قدرات هائلة لم تستخدم بعد، وأن تفريغ الطاقة فى العمل والحب والإنتاج هو مفتاح الصحة النفسية للفرد والمجتمع.

ولكن الكاتب يضيف إلى ذلك فكرته عن ظاهرة التطفل التى تنشأ تلقائياً فى كل مجتمع وتخترق نقاط الضعف الموجودة فيه. ويرى أن سلوك الإنسان ينتمى إلى عالمين مختلفين: أحدهما حقيقى منضبط موضوعى، والآخر وهمى فوضوى لاعقلانى. وأن اختلاط العالمين معاً هو سبب كل غموض. وإذا لم يكن هناك وعىّ أو مقاومة فإن كل شئ يصبح قابلاً للاختراق ويخضع لميكانيزم الخلط. إن المبادئ الراقية والأخلاق الإنسانية التى تدعوا إلى الخير والحب والعمل والحرية والعقلانية، تختلط بطريقة مريبة بالتسلط والتعصب والأنانية والتفكير السحرى والعدوانية، وتحتاج إلى مجهود ضخم من

أجل الشرح والتبرير. وهكذا فإن البضاعة الرخيصة تأتى مختلطة بالبضاعة الثمينة داخل باقة واحدة، بحيث يتعين عليك أن تقبل الاثنين معاً أو ترفضهما معاً.

ولكن الإنسان سوف يصل قريباً إلى مرحلة من النضج، بحيث لن يكون من الصعب عليه أن يفرز الخبيث من الطيب، وأن يلاحظ الأساس الواهى الذى كان يقوم عليه توازننا النفسى، وأن يستخرج الأخلاق الإنسانية من بين ذلكالكم الهائل من الزيف والتضليل.

هذا الكتاب هو المحاولة الثانية للكاتب بعد كتابه الأول (التوازن الزائف – رقم الإيداع – 2009/4894). ويأمل الكاتب أن تكون تلك المحاولة ناضجة بما يكفى لأن توصِّل للقارىء الرسالة المقصودة بوضوح تام.

رقم الإيداع: 23923 / 2013

الترقيم الدولى:3 1264 90 977 978

البريد الألكترونى للكاتب

ta_ah_ha@hotmail.com



عصر الحكمة

إنَّ عصرَ الحكمةِ قادمٌ لا محالةَ، والإنسانُ سوفَ يصلُ إلى مرحلة النضج الكامل، فيستردُّ إرادتَه ويثقُ فى قدراتِه ويحترمُ إنســانيتَه، ويتأكدُ أنَّ الخيرَ أقوى كثيراً مما كان أجدادُه يعتقدون.

والحضارةُ سوف تُصحِّح اتجاهَها ، وتعدِّلُ دفّتها وتتقدمُ إلى الأمام. وكلُّ ما نراهُ على سطح هذا الكوكب من اضطراباتٍ، ما هو إلا محاولاتٌ من القلةِ المستفيدة من الوضع الحالى من أجل توجيه الحضارة بعيداً عن الإتجاهِ الذى يجبُ أن تذهبَ إليه.

